الضمان الرَّبَّانيّ لتعاهد القرآن الكريم

محمود بن عبد الجليل روزن

مدير عام نشاط التعليم القرآني بمؤسسة الخير للإغاثة الإنسانية بمصر،
والباحث في علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

تتأسَّسُ فكرةُ هذا الطَّرح على أنَّ تَكفُّلَ الله ﷻ بحفظ القرآن الكريم من التحريف والتبديل يَحْملُ - ضِمنًا - تكفُّلاً ربَّانيًّا بتيسير أسبابِ تعاهُده، ولو فُرِض عدمُ وجود توجيهٍ نبويٍّ بتعاهُد القرآن الكريم؛ لكان تَحقُّقُه من خلال موقع القرآن الكريم من منظومة العبادات الإسلاميَّة غيرَ مُفتقِرٍ إلى مثل ذلك التوجيهِ، وغير مفتقِرٍ إلى عبادةٍ مستقلَّةٍ.

ولَمَّا كان النظرُ العقليُّ يقضي بأنّ تيسيرَ تعاهُد الكلام المسطور — أيِّ كلامٍ — يلزم له شروطٌ معيَّنة في هذا الكلام وخارجه = فقد سلك هذا البحث سبيلَ استنباط تلك الشروط استنباطًا عقليًّا منطقيًّا، ثمَّ إثبات تحقُّق تلك الشروط في القرآن الكريم؛ بما لا يمكن تحقُّقه لكلامٍ غيره. بل إنَّ القرآن الكريم قد تحقَّقت له أمورٌ إضافيةٌ تربو عمَّا اقتضاه النَّظرُ العقليُّ بكثيرٍ.

فمن الأمور التي تحقَّقت للقرآن تيسيرُه للذِّكر، ونَفيُه للسآمةِ عن نفس قارئه ومتعاهده؛ بما له من إعجازٍ تأثيريٍّ نابعٍ من صفاتِه الموصوف بها.

ومن الأمور الخارجيةِ التي اجتمعتْ للقرآن الكريم: موقعُه الفريدُ في منظومة العباداتِ، ووعدُ الله ﷻ بحفظِ حاملِه وآخذِه بحقِّه؛ بما ينعكس على إقبال قارئه عليه؛ تعاهُدًا وتدبُّرًا وامتثالاً.

ولـمَّا كان القرآن مُتفرِّدًا في اجتماع تلك الأمور له؛ صحَّ أن يُعدَّ تعاهُدُ القرآن وجهًا من وجوهِ إعجازِه.

Allah's Guarantee of Holy Quran Protection

Dr. Mahmoud Ibn Abdul Jalil Rosen
Director General of Quran Educational Activities at Al-Khair Foundation for Humanitarian Relief in Egypt and Researcher in Sciences of Holy Quran

Abstract

The idea of this research is based on the fact that Allah's guarantee to protect the Holy Quran from distortion and corruption implicitly carries Allah's guarantee to facilitate the reasons of protection. If there had been no direction of prophet Muhammad to protect the Quran, there would have been no need for such a direction or for an independent worship due to the position of the Holy Quran in the set of Islamic worships.

Since rational consideration states that facilitating the protection of written words – any words – requires specific conditions within and outside the context of such words, this research has derived those conditions rationally and logically. Then, it has proven that these conditions have been fulfilled only in the Holy Quran. Indeed, the Holy Quran has much more matters than what has been pointed out by the rational consideration.

Some of the matters that the Holy Quran manifested are: facilitation of remembrance and lack of boredom on the part of its reader and preserver. This is due to its effective inimitability based on its well-known characteristics.

Some of the external matters that the Holy Quran fulfilled are: Its unique position in the set of Islamic worships and Allah's promise to protect the one who takes care of the Holy Quran and follows its teachings. This can be reflected on its reader's desire to preserve, forethought and comply with it.

Since the Holy Quran is unique in having such matters, its protection is absolutely a miracle.

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، هو يتولَّى الصالحين، وأشهد أنَّ محمَّدًا ﷺ خاتمُ النبيين، والمبعوثُ رحمةً للعالمين، صلوات ربِّي وتسليماته عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين... وبعد؛

فإنَّ وُجوه إعجاز القرآن الكريم لا تنتهي، ورُبَّما فُتِح لأحدهم بابٌ من عِلمِ القرآن فظنَّ أنَّه أتى على الغايةِ، ووقف على بيتِ القصيدِ، ثمَّ يُرفَع له عَلَمٌ؛ فإذا تغيَّاه وجد أنَّه ما زال يحبو على أطراف الحِمَى، وأنَّ قُصَارَه منه لم يُبلِّغْه شبرًا، ولم يفتح له في حجاب النُّور فِترًا.

وقد قصدتُّ إلى إعداد دراسةٍ وافيةٍ عن تعاهُد القرآن الكريم، تجمع أطراف النظريَّة، وتُجلِّي معالم التطبيق[1]، فكان أن وقفتُ على ما أحسبُه جانبًا من جوانبِ حفظ الله ﷻ للقرآن الكريم، ألا وهو حفظ تعاهُده وتيسير ذلك. وكان أن تساءلتُ: هل يختصُّ القرآن الكريم بهذا الجانبِ؛ كاختصاصه دون الكتب السماوية بتكفُّل الله ﷻ بحفظه؟

وهذا يقتضي سؤالاً آخرَ: ما الصفاتُ الواجبُ تحقّقها للكلام – أيّ كلام – حتَّى يكون ميسورَ التعاهُدِ مضمونَه؟ فوجدتُ أنَّ هذه الصفاتِ تنقسم إلى صفاتٍ نابعةٍ من الكلام نفسه: كأن يكون يسيرًا في مَبناه ومَعناه، وأن يحمل عواملَ تقبُّله تقبُّلاً مستمرًّا؛ فلا تخالطه سآمة على طول الأمد، ولا يخلقُ على كثرةِ الردِّ.

(١) دراسة مخطوطة للباحث بعنوان: «تعاهد القرآن الكريم بين النّظرية والتطبيق»، يُمثل هذا البحثُ أحدَ فصولها.

ثمَّ لابدَّ أن توجدَ صفاتٌ مُتعلِّقةٌ بالكلام من خارجه، وأهمُّهـا: أن يكون هناك دافعٌ ذاتيٌّ باعثٌ على كثرة التعرُّض لـه بـالقراءةِ والفهـمِ والتحمُّل والتأمُّل، مع وجود المحلِّ القابل لتحمُّله، والمنهجِ الجامع الصـالح لذلك التحمُّل تنظيرًا وتطبيقًا. فإذا تحقَّقت في كلامٍ هذه المُقوِّمات كـان من الممكن أن يُستظَهرَ فلا يُنسى، وأن يُؤخذَ فلا يَستعصي.

فإذا استطعنا إثباتَ أنَّ هذه المقوِّمات قد اجتمعت للقرآن الكـريم، بل اجتمع له ما يفوقها؛ نكونُ قد أثبتنا - ضمنًا - أنَّ تعاهُـد القـرآن الكريمِ محفوظٌ كحفظِ روايته ودرايته ورعايته، وأنَّ انفرادَه بذلك يُصحِّح القولَ بأنَّ تعاهد القرآن الكريم أحدُ وجوهِ إعجازه.

وإذًا؛ فأهمِّية هذا البحث تكمُن في أمرين:

١. بيان عوامل تيسير تعاهُدِ القرآن الكريم.
٢. بيان انفراده بذلك؛ بما يصحُّ معه أن يكون أحدَ وجوهِ إعجاز القرآن الكريم.

و لم أقف – في حدود علمي واطّلاعي – على كتابـاتٍ تناولـتْ تعاهُد القرآن الكريم من الزواية التي ينظرُ منها هذا البحث.

وقد سلكتُ في هذه الدراسةِ منهجًا وضعتُ من خلاله قواعدَ عامَّةً لما أسميتُه ضمان التعاهُد، ثمَّ استخرجتُ من نصوص الوحيين، وكلام أهل العلم ما يدلُّ على تحقُّق كلِّ قاعدةٍ وانطباقها على القرآن الكريم؛ مُلتزمًـا في ذلك تخريج الآيات أثناء المتن، وتخريج الأحاديث والآثار، فإن كـان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيتُ بالتخريج منه، وإن كان في غيرهما اقتصرتُ على تخريجه من أهمِّ المصادر؛ مع الإشارة إلى حُكمـه – تصحيحًا وتضعيفًا – من كلام العلماء؛ ما أمكن. كما التزمتُ – قـدر

الجهد - بعزوِ كلِّ نقلٍ، وكلِّ فكرةٍ إلى مصدرها.

وبعد هذه المقدِّمة ثنَّيتُ بمبحث تمهيديٍّ عقدتُّه لضبط مصطلحات البحث، ثم جاء لُبُّ البحث في سبعة مباحث:

- **المبحث الأوَّل**: ضمان التعاهد من خلال تكفُّل الله ﷻ بحفظ القرآن الكريم.
- **المبحث الثاني**: ضمان التعاهد بوجود البَّاعث (موقع القرآن الكريم من منظومة العبادات).
- **المبحث الثالث**: ضمان التعاهُد من خلال ضمان قبول المَحِلِّ.
- **المبحث الرابع**: ضمان تعاهد القرآن الكريم من خلال تيسيره للذِّكْر.
- **المبحث الخامس**: ضمان تعاهد القرآن بنفي السآمة عن قارئه؛ فلا يَمَلُّ بترداده.
- **المبحث السادس**: ضمان تعاهد القرآن الكريم من خلال تكفُّل الله ﷻ بحفظ من يحفظُه.
- **المبحث السابع**: بيان تفرُّد القرآن الكريم بتحقُّق ضمانات التعاهُد له.

ثم ختمتُ البحث بخاتمة ذكرت فيها أهمَّ نتائجه، وبعض التوصيات.

واللهَ أسألُ أن يرزقنا الفهمَ، وأن يُوفِّقنا إلى حُسن القصد، وأن يعيننا على ما يرضى، وأن يُسدِّدنا في القول والعمل، وأن يرزقنا القبول والإخلاص... آمين.

التمهيد

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأوَّل: في معنى الضَّمان.
- المطلب الثاني: التعاهُد في اللغة والاصطلاح.
- المطلب الثالث: المراد بالضمان الربَّاني للتعاهد

التمهيد: في ضبط الاصطلاحات

المطلب الأول: معنى الضمان

الضمانُ مأخوذٌ من الفعل (ضَمِنَ)؛ يقول ابن فارس: «الضاد والميم والنون أصلٌ صحيحٌ، وهو جَعْل الشَّيء في شيءٍ يحويه. من ذلك قولهم: ضمَّنتُ الشيءَ: إذا جعلتَه في وعائه. والكَفَالة تسمَّى ضَمَانًا من هذا؛ لأنَّه إذا ضمِنَه فقد استوعَبَ ذمّته»[١]. ويقال: ضَمِنَ الشيءَ بمعنى تَضَمَّنَه، ومنه قولهم: مَضْمُونُ الكتاب كذا وكذا[٢]. ويقال ضمَّن الشيءَ الوعاء ونحوه: جعله فيه وأودعه إياه[٣].

والضمان يحمل معنى الحفظ والرِّعاية؛ يُقال: هو ضامنٌ أي حافظٌ مُراعٍ، وفي الحديث «الإمام ضامِنٌ والمُؤَذِّنُ مُؤْتَمَنٌ»[٤]؛ أَراد بالضَّمَان هٰهنا الحِفظَ والرعاية لا ضَمان الغرامة؛ لأَنَّه يحفظ على القوم صلاتهم. وقيل: إنَّ صلاة المقتدين به في عهدته، وصحَّتها مقرونةٌ بصحة صلاته؛ فهو كالمتكفِّل لهم صحةَ صلاتهم[٥].

والضمانُ التزامٌ أن يؤدِّيَ ما عليه أو أن يؤدِّي عن غيره ما قصَّر فيه،

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/ ٣٧٢).

(٢) لسان العرب (٥/ ٥٣٢).

(٣) المعجم الوسيط (ص٥٤٤-٥٤٥).

(٤) أخرجه أحمد في المسند عن أبي هريرة (ح٧١٦٩)، وأبو داود في السنن (ح ٥١٧) كتاب الصلاة؛ باب ما يجب على المؤذن. وأخرجه غيرهما. وصحَّحه الألباني في المشكاة (ح ٦٦٣).

(٥) غريب الحديث للخطَّابي (١/ ٦٣٦)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٠٢).

وضمان الشيء: جزمٌ بصلاحيته وخُلوِّه مما يعيبه. فالضمان كفالةٌ والتزامٌ، **والضمانةُ**: وثيقةٌ مكتوبةٌ أو تعهُّدٌ شفويٌّ يضمن به الرجـــل صـــاحبه أو يضمن به البائع خُلُوَّ المبيع من العيوب وبقاءه صالحًا للاستعمال إلى مُـــدّةٍ معيَّنة[1].

(١) ينظر: المعجم الوجيز (ص٣٨٣). وجدير بالتنويه أنَّ الضمانةَ بهذا المعنى مُولَّدةٌ، وفيهـــا تطوُّرٌ دلاليٌّ، فقد نصَّت معاجم اللغة على أنَّ الضَّمانة هي الزَّمانة والعاهة (ينظر علـــى سبيل المثال لسان العرب٥/ ٥٣٣)، وردَّه ابن فارس؛ قال: «وأمَّـــا الضَّـــمانة، وهـــي الزَّمانة. والضَّمِن: الزَّمِن، فإنَّهُ عندي من باب الإبدال كأنَّ الضاد مبدلة من زاي» يُنظر: معجم مقاييس اللغة (٣/ ٣٧٢).

المطلب الثاني: التعاهد في اللغة والاصطلاح

أوَّلاً: التعاهد في اللغة:

العَهْدُ: الحفاظ ورعاية الوُدِّ والحرمة ومنه قول النبيِّ ﷺ: «إنَّ حسن العهد من الإيمان»[١]؛ أي رعاية المودَّة. والعهد: الوصية، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ [يس: ٦٠]، والعهد: الأمان، ومنه قوله: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿ فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ [التوبة: ٤]، والعهد: اليمين يحلف بها الرجل؛ يقول: عليَّ عهد الله، والعهد: الميثاق، ومنه قوله: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١]، وكل ما عُوهد الله عليه فهو عهد، وكل ما بين العباد من المواثيق فهو عهدٌ. والعهد: الذِّمَّة، ومنه سُمِّي المُعاهِد ذمِّيًّا. والعهد الالتقاء والإلمام: أن تعهد الرجل على حال أو في مكان يقال: وعهدي به قريب، وعهدي به موضع كذا وفي حال كذا. وعهدتُه بمكان كذا؛ أي: لقيتُه[٢].

والتعاهد: التحفُّظ بالشيء وتجديد العهد به، والمعاهدة والاعتهاد والتعاهد واحدٌ، وهو إحداث العهد بما عهده، ويقال للمحافظ على العهد: مُتعهد[٣].

وتَعَهَّدَ فلانًا، وتعهَّد ضيعته، أي راعى وحافظَ. وقال بعضهم: تعهَّدَ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك عن عائشة (ح ٤٠)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (ح ٢١٦).

(٢) العين (١/ ١٠٢) ، وتهذيب اللغة (١/ ١٣٥- ١٣٨)، واللسان (٦/ ٤٩٤-٤٩٥).

(٣) العين (١/ ١٠٣)، ولسان العرب (٦/ ٤٩٥).

أفصحُ من (تَعَاهَدَ)؛ لأن التَّعَاهُدُ إنما يكون بين اثنين[1]. وذهب أبو زيد إلى تخطئة (تَعَاهَدَ) في هذا الموضع؛ قال: تَعَهَّدتُّ ضيعتي وكلَّ شيءٍ، ولا يقال تعاهدتُ[2]. وصحّحهما الفرَّاء وابن السكيت وابن دريد وغيرهم من أئمة اللغة[3]، ويشهد له قول النبيِّ ﷺ: «تعاهدوا القرآن»[4] .

وردَّ الطِّيبي قول مَن قال: إنَّ التعهُّد أفصح من التعاهُد بأن العكس أولى، واستدلَّ بما قاله الزمخشري عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: ٩]؛ قال: عنى به: فَعَلَ، إلا أنه قد أُخرِجَ في زنة (فاعَلَ)؛ لأنَّ الزِّنَة في أصلها للمبالغة والمباراة، والفعل متى غولب فيه فاعله جاء أبلغ وأحكم منه، إذا زاوله وحده من غير مغالب، ولا مُبَارٍ لزيادة قوة الداعي إليه[5]. قال الطيبي: وإذا كان كذلك فكيف يظن في كلام أفصح الفصحاء ما هو أفصح منه؟[6] وقد يقال إنَّ في استدلال الطِّيبي بكلام الزمخشريِّ نظرًا؛ لأنَّ الخلاف في (تَعَاهَد) المطاوعة، وليس في (عَاهَد) كـ(خَادَع) التي للمفاعلة والمغالبة، وليسا واحدًا. وهذا مردودٌ عليه بقول ابن قتيبة: «وتأتي (تفاعلتُ) من واحدٍ كما جاءت (فاعلتُ) من واحدٍ،

(١) الصحاح (٢/ ٥١٦). وانظر: الميسر في شرح مصابيح السنَّة (١/ ٢٠٧).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة (١/ ١٣٨).

(٣) ينظر: معاني القرآن للفرَّاء (٣/ ١٧٠)، وإصلاح المنطق (ص ١٧٨) وجمهرة اللغة (٣/ ١٢٥٠)، ولسان العرب (٦/ ٤٩٦).

(٤) أخرجه البخاري عن أبي موسى ﷺ (ح ٥٠٣٣) كتاب فضائل القرآن؛ باب استذكار القرآن وتعاهده، ومسلم (ح٧٩١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب الأمر بتعهُّد القرآن.

(٥) ينظر: تفسير الزمخشري (١/ ١٧٤).

(٦) الكاشف عن حقائق السنن (٣/ ٩٤٣).

تقول: تقاضيتُه، وتراءيتُ له، وتماريتُ في ذلك، وتعاطيتُ منه أمرًا قبيحًا»[1]. وعلى كلٍّ؛ فإنَّ وُرودَه في كلام أفصح الفصحاء ﷺ لا يُعوِزُه إلى دليلٍ إضافيٍّ لتصحيحه، أو للحُكم بفصاحته.

وفي هذا البناء (تفاعَلتُ) لطيفتان؛ الأُولى: أنه مُشعرٌ بنوعٍ من المعالجة الدالة على أنَّ القرآن عزيزٌ غالِبٌ؛ فإن لم يدُمْ معه الحافظُ على العهد فإنَّه يتفلَّتُ منه كما دلَّ عليه حديث النبيِّ ﷺ: «تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده لَهُوَ أشدُّ تَفصِّيًا من الإبل في عقلها»[2].

الثانية: أنَّ بناء (تفاعلتُ) المتضمِّنَ المفاعلةَ مُشعرٌ بأنَّ القرآن طرفٌ فاعلٌ في العهد، فكأنَّ القرآن يتعهَّدُ صاحبَه بالحفظِ! وسيأتي مزيد كلامٍ على هذا الملمح في محلِّه من البحث.

ثانيًا: التعاهد في الاصطلاح:

يمكن أن نعرِّف التعاهُد اصطلاحًا بأنَّه: «تجديدٌ دائمٌ للعهد بحفظ القرآن الكريم؛ لئلا يُنسى».

والمراد بحفظ القرآن: الحفظ بمستوياته الثلاثة: روايةً ودرايةً ورعايةً، وتعاهُد القرآن – وإن كان الأصل فيه أنَّه تعاهُدٌ للروايةِ – فإنَّ من تمام التعاهُد أن يُجدِّد العهدَ بدرايته: فهمِه وتفسيرِه وتدبُّرِه، ورعايتِه؛ بأن يتفقَّد أوامرَه ونواهِيَه ليرى ما حظُّه منها، وما أخذُه لها.

والتجديد الدائم أن يأتي المرءُ ذلك كلَّه في كلِّ وقتٍ؛ لأنَّ فاعل ذلك كلِّه في بعض الوقت، أو فاعل بعضه كلَّ الوقت = لا يقال له: متعاهد؛ بمعنى: محافِظٍ مُراعٍ.

---

(١) أدب الكاتب (ص ٣٠٣).

(٢) أخرجه الشيخان، وقد تقدَّم قريبًا.

وقولنا (لئلَّا يُنسى) إشارةٌ إلى أنَّ التعاهد الشرعيَّ من أجل غايةٍ مُحدَّدة؛ هي عدم نسيان القرآن روايةً ودرايةً ورعايةً، وعليه فإنَّ متعاهد الروايةِ من أجل مجرد تحصيل شهادة دراسيّة، أو اجتياز مستوى تعليميٍّ، أو ليكون استحضاره للقرآن روايةً مُسوِّغًا له ليقرأه في مأتمٍ أو نحوه... كلٌّ هذا له صورةُ التعاهُد، وأمَّا قبول هذا الفِعل والإثابة عليه فعند الله عِلمُ ذلك.

فالتعاهُد أَمَنَةٌ من النسيان، والنسيان ترك الإنسان ضبطَ ما استُودِع، إما لضعفِ قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصدٍ؛ حتى ينحذف عن القلب ذكره[1]. وهذا النِّسيانُ ضدُّ الذِّكر. ومن ذلك قول الله تعالى على لسان يوشع: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف:٦٣]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف:٧٣]، فهذا من النسيان الذي هو ضدُّ الذِّكْر.

والنسيان كذلك: التَّرْكُ والتضييع والتفريط والإعراض عن العمل التي هي ضدُّ الرِّعايةِ[2]. ومنها قوله جلَّ ذكره: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٦]؛ أي: تركتَ العملَ بها وأعرضتَ عنها. والآيات في ذلك كثيرة.

فلمَّا كان التعاهد حياطةً للقرآن من النسيانِ؛ كان أولى ما يدخل في النِّسيان: التضييع والترك والإعراض، كما كان أولى ما يدخل في الحفظ: الوَعْي والرعاية.

---

(١) المفردات (٢/ ٦٣٤).

(٢) تفسير الطبري (٥/ ١٥٥)، وإصلاح الوجوه والنظائر (ص ٤٥٤-٤٥٥)، ونزهة الأعين النواظر (ص ٥٧٩-٥٨٠).

وبهذا البيانِ يستقيم القولُ بأنَّ للتعاهُد ثلاثــةَ مســتويات؛ الأول: تعاهُد الرواية والاستظهار، والثاني: تعاهُد الدرايــة والفهــم والــوعي، والثالث: تعاهد الرِّعاية والعمل به والوقوف عند حدوده.

المطلب الثالث: المراد بالضمان الربَّاني للتعاهد

مقصودُنا بالضِّمان الرَّبَّاني لتعاهد القرآن: جملة الأسباب التي هيَّأها الله ﷻ بإرادته الكونيَّةِ، وأودعها القرآن الكريم والشريعةَ الخاتمة؛ حتَّى يكون تعاهُدُ القرآنِ مقدورًا ميسورًا لطالبه.

وبعبارة أخرى؛ فإنَّ الضمانَ يُؤدِّي بفحواه أن يكون تعاهُد القرآن واقعًا معهودًا، ولو لم يَرِدْ في الشرعِ حثٌّ عليه وأمرٌ به وتحذيرٌ من تركه ونسيانه. وإذ وُجِدَ مثل هذا الأمر والنهي كان ذلكَ الضمان بمثابةِ أسبابٍ كونيَّةٍ وشرعيَّة؛ يسَّر الله ﷻ بها عبادة التعاهُد، وهيَّأها لمبتغيها.

وإنَّ المرء إذا رامَ المداومة على تجديد العهدِ بكلامٍ ما – بغضِّ النظر عن ماهيته – فإنَّ النَّظر العقليَّ يقضي بجملة أمورٍ لازمةٍ لهذا التعاهدِ؛ وهي:

١- **اليُسْر الذاتيّ** للكلام المراد تعاهده؛ فإنَّ الكلام إذا كان صعبًا في مبانيه ومعانيه ومسالكه الأسلوبية؛ تعسَّر تعاهُدُه.

٢- **قبول المحلِّ**: وهو ذهن المتلقِّي، بتهيُّؤه في نفسه لتلقِّي ما يُراد تعاهُدُه تهيُّؤًا فطريًّا، ثمَّ بصلاحية منهج التلقِّي؛ وإلّا فإنَّه يعجزُ عن التعاهد ولو كان الكلام من اليُسْر بمكان.

٣- **نفي السآمةِ**: وذلك أن يحمل الكلامُ مقوِّماتِ نفي السآمةِ عن نفس مُتعاهده، فإنَّ الكلام إذا كان يسيرًا، والمحلُّ قابلاً؛ فقد تدبُّ السآمة إلى النَّفْس مع طول الأمَدِ.

٤- **وجود الباعث على التعاهُد**: وهو الحادي الذي يحدو المتعاهدَ ويدفعه إلى تحمُّل ما يرادُ تعاهُدُه، وكلَّما كثر الحداةُ وتنوَّعوا كان فيه ضمان للاستمرارية الذَّاتيةِ. وإن لم يوجد الباعث فإنَّ

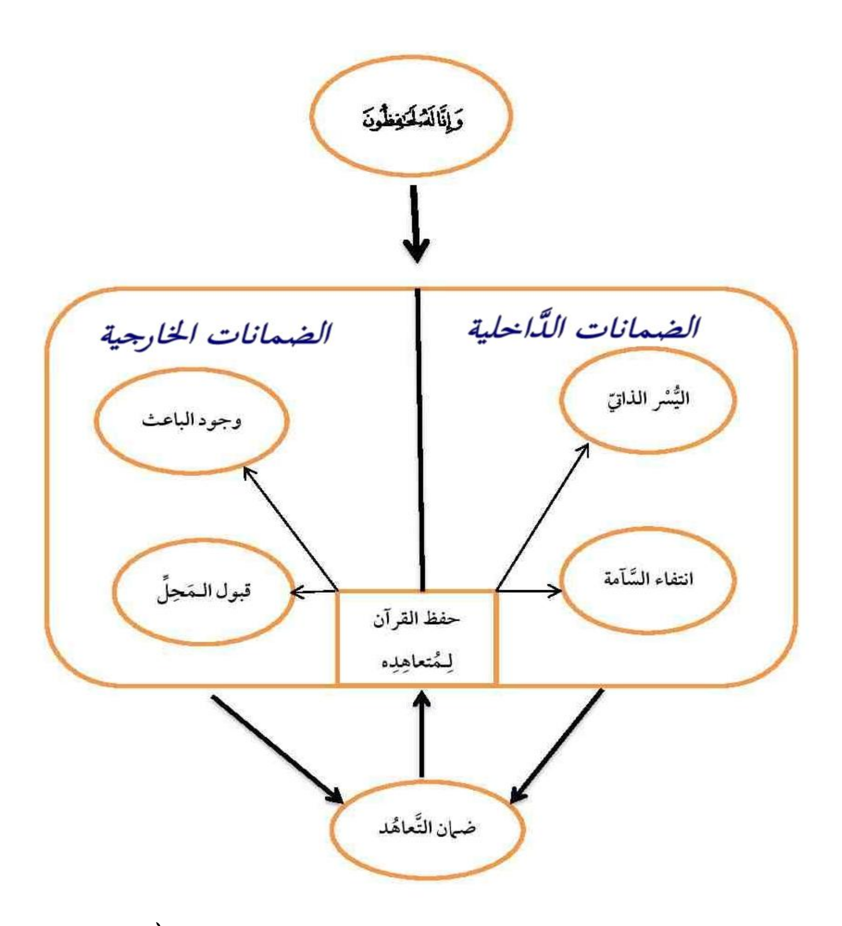
العوامل الثلاثة الأولى تُصبح غير ذات جدوى. وإذا اجتمعت تلك العوامل الأربعة ضُمِنَ التعاهُد.

فهل اجتمعت تلك المقوِّمات للقرآن الكريم؟ نؤكِّد أن نعم؛ بل لقد أربى القرآن عليها بما لم يتَّفق لكلامٍ غيره، فإنَّ الله ﷻ قد تكفَّل بحفظه ابتداءً، فضُمِنَ حفظ تعاهُدِه كجزءٍ من حفظِ روايتِه، ثمَّ كان له القِدْحُ المُعلَّى من اليُسر الذاتي ونفي السآمةِ، وهي خصائصُ في القرآن نفسه لا في شيءٍ خارجٍ عنه؛ لبديع نظمه، وحسن بيانه، وجودة تركيبه، وسهولته في الحفظ، وأنَّه لا يُملُّ على كثرة الردِّ... ونحو ذلك. فصحَّ أن تُسمَّى ضماناتٍ ذاتيَّة أو داخلية.

وأمَّا قبول المحلِّ ووجود الباعثِ فيتعلَّقان بالقرآن الكريم ولكن من خارجه؛ كموقع القرآن المركزيِّ في منظومة العباداتِ، ومدى زكاء المحلِّ الورادِ عليه القرآن، وهذا خاصٌّ بقارئهِ. فهذان ضمانان خارجيَّانِ.

ثمَّ يجتمع كلُّ ذلك ليضمنَ تعاهد القرآن الكريم، فإذا حصل التعاهُد كان له تأثيره الإيجابيُّ من حيث إنَّ المتعاهِد حافظٌ لأمر الله ﷻ، فهو موعود بحفظ الله له.

فانفرد القرآن بأمرين فوق الأربعة: تكفُّل الله بحفظه، وتكفُّله ﷻ بحفظ حافظه، وإنَّ من حفظ الله ﷻ لحافظ القرآن أن يحفظه على عهده من القرآن، فانعكس على حفظ حافظه له ... وهكذا. وتكفُّلُ الله ﷻ بحفظ القرآنِ أمرٌ خارجٌ عن ذات القرآن، وإن كان منصوصًا عليه في القرآن، وأمَّا وعدُه ﷻ بحفظ حافظ القرآن روايةً ورعايةً ودرايةً؛ فيصحُّ أن يكون داخليًّا باعتباره خاصيَّة للقرآن الكريم، ويصحُّ أن يكون خارجيًّا باعتباره ضمانًا عامًّا من الله ﷻ لحافظِ حدوده وأوامره ونواهيه. والمخطَّط الآتي يلخِّص هذه العلاقة. والله المستعان.



وهذا ما سنتناوله بمزيد من التوضيح – بإذن الله – في المباحث الآتية.

الضمان الربَّاني لتعاهُد القرآن الكريم

وفيه سبعة مباحث

- **المبحث الأوَّل**: ضمان التعاهد من خلال تكفُّل الله ﷻ بحفظ القرآن الكريم.
- **المبحث الثاني**: ضمان التعاهد بوجود البَّاعث (موقع القــرآن الكريم من منظومة العبادات).
- **المبحث الثالث**: ضمان التعاهُد من خلال ضمان قبول المَحِلِّ.
- **المبحث الرابع**: ضمان تعاهد القرآن الكريم من خلال تيسيره للذِّكْر.
- المبحث الخامس: ضمان تعاهد القرآن بنفي السآمة عن قارئه؛ فلا يَمَلُّ بترداده.
- **المبحث السادس**: ضمان تعاهد القرآن الكريم من خلال تكفُّل الله ﷻ بحفظ من يحفظُه.
- **المبحث السابع**: بيان تفرُّد القرآن الكريم بتحقُّــق ضـــمانات التعاهُد له.

المبحث الأوَّل

ضمان التعاهد من خلال تكفُّل الله ﷻ بحفظ القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩]، أي حافظون له من التبديل والتغيير في كلِّ وقتٍ، فلا يُزاد فيه باطلٌ، أو يُنقص منه ما هو منه[١].

وقد حَفِظَ اللهُ ﷻ القرآنَ في اللوح المحفوظ؛ فقال تعالى: ﴿ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ [البروج: ٢١-٢٢][٢]. واللوح المحفوظ هو الذي فيه جميع الأشياء.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ [الواقعة:٧٧-٧٨] أي: هو في كتاب مَصُونٌ عند الله، لا يمسُّه شيءٌ من أذىً ولا غبار ولا غيره[٣].

كما حفظه الله من التبديل والتحريف؛ بأن نزَّل به الروحَ الأمينَ جبريل عليه السلام، وحباه بصفاتٍ تجعله مؤهَّلاً لتبليغه على الوجه الذي

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٤/ ١٨).

(٢) فيها قرءاتان عشريَّتان: قرأ نافع برفع الظاءِ؛ صفة للقرآن، فتكون تأكيدًا لآية (الحجر)، وقرأ الباقون بخفضها؛ صفة لِلَّوْحِ [ينظر: النشر في القراءات العشر ٢/ ٢٩٩]. واللوح المحفوظ هو أمُّ الكتاب الذي فيه جميع الأشياء، ومنه نسخ الكتب، وهو محفوظ من ألا يتلقَّفه غيرُ الملائكة، فلا تصل إليه الشياطين، ومحفوظٌ من الزيادة فيه والنقصان. وحفظ القرآن يستلزم أنَّ اللوح المودَع هو فيه محفوظٌ أيضًا، فحصل من القرآتين ثبوت الحفظ للقرآن ولِلَّوح. ينظر: معالم التنزيل (٨/ ٣٨٩)، والبحر المحيط (٨/ ٤٤٦)، والتحرير والتنوير (٣٠/ ٢٥٥).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٣٦٢-٣٦٣).

أراده الحقُّ سبحانه، فقال تعالى: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ [النجم: ٥- ٦]، وقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: ١٩-٢١]، وقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٣]، فذكر من أوصاف جبريل عليه السلام أنَّه شديد القوى، وذو قوة، وذو مرة، والقُوى جمع قوَّة، والمراد استطاعة تنفيذ ما يأمر الله به من الأعمال العظيمة العقلية والجسمانية(١)، وقال ابن عباس: ذو مِرَّة: يعني ذو منظر حسن. وتُطلق على قوة الذات، وتطلق على متانة العقل وأصالته، وهو المراد هنا؛ لأنه قد تقدَّم قبله وصفه بشديد القُوَى(٢).

وقال الزمخشري: ذو حصافةٍ في عقله ورأيه، ومتانةٍ في دينه(٣).

ووصفَه بأنه مكينٌ عند الربِّ، مُطاعٌ في السموات أمينٌ، وهذه الصفات تتضمَّنُ تزكيةَ سند القرآن، وأنَّه سماع محمد ﷺ من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين، فحسبُكَ بهذا السند علوًا وجلالة تزكيةُ الله ﷻ له(٤).

وفي هذا ضمانٌ لحفظِ القرآن الكريم عن طريقِ حفظِ واسطتِه الملَكيَّةِ.

وحفظ الله ﷻ القرآن من الشياطين أن يتقوَّلوا مثله، أو يزيدوا فيه

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٩٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٩٥).

(٣) الكشاف (٥/ ٦٣٦).

(٤) ينظر: التبيان في أيمان القرآن (ص ١٩٢-١٩٤).

وينقصوا ويبدِّلوا، فقال: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١١]، وقال: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ [التكوير : ٢٥].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة:٧٧-٧٨]؛ قال ابن زيد: هو كتاب لا يمسه إلا المطهرون؛ زعموا أنَّ الشياطين تنزَّلت به على محمدٍ ﷺ، فأخبرهم الله ﷻ أنها لا تقدر على ذلك ولا تستطيعه، وما ينبغي لهم أن ينزلوا بهذا، وهو محجوب عنهم(١).

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]، ومن الباطل إبليس؛ لا يستطيع أن يزيد فيه باطلاً أو ينتقص منه حقًّا(٢).

ثم حفظه الله ﷻ بأنْ تكفَّل بجمعه في صدر النبي ﷺ فلا ينساه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٧]، وقال جلَّ ذكره: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعلى: ٦-٧].

وحفظه الله ﷻ بأن هيَّأ أسباب حفظه، وجعله مُيسَّرًا للحفظ والفهم، فقال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[أربعة مواضع من سورة القمر أوَّلها آية ١٧]، فكثُر حفَّاظه في زمن النبي ﷺ وبعده، حتى وصلنا بالتواتر؛ فلو غيَّر أحدٌ نُقطة أو حركة، أو بدل لفظةً؛ لقال له الصبيان قبل العلماء: كذبتَ أو أخطأتَ؛ بل صوابه كذا وكذا.

وقد خُصَّ القرآن بهذه الخصيصة بخلاف غيره من الكتب المتقدمة،

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٣٦٣).

(٢) ينظر: الطبري (١٤/ ١٩)، ومعالم التتريل (٤/ ٣٧١٠).

فإنه تعالى لم يتكفَّل بحفظها بل استحفظها الربَّانيينَ والأحبارَ، فوقع فيها الاختلاف والتحريف.

ومن لوازمِ حفظ القرآن الكريم روايةً أن يُيسَّر سبيلُ تعاهُدهِ؛ إذ ليس الحافظُ على الحقيقةِ مَن استظهرَ في وقتٍ ثمَّ نسيَ عن قريبٍ ما استظهره، فهذا لا يقال له حافظٌ.

وليس حفظُ القرآن الكريم مقصورًا على تكفُّل الله ﷻ بحفظ روايته؛ بل لقد تكفَّل سبحانه وتعالى بحفظ رعايته، فلا تزال طائفة من أمة محمد ﷺ على الحقّ ظاهرين حتى يأتي أمر الله وهُم على ذلك، وهذا مرويٌّ عن نحو عشرين صحابيًّا عن رسول الله ﷺ؛ بما يبلغ به حدَّ التواتر[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ما من حرف أو آية إلا وقد عَمِلَ بها قومٌ، أو لها قوم سيعملون بها»[2].

وقال الحسن: حفظه بإبقاء شريعته إلى يوم القيامة[3].

وهذا مستلزمٌ بالضرورة لحفظ درايته؛ إذ لا يُعمل بالقرآن على مُراد الله إلا بفهم مُرادِ الله ﷻ. ومن لوازم ظهور الطائفة المنصورة على الحقِّ إقامتُهم للشَّرعِ ظاهرًا وباطنًا، وفي القلبِ منه تدبُّر القرآن، ولا سبيل له إلا بفهم معاني القرآن، فلزم أنَّ معاني القرآن محفوظة كحفظِ مبانيه. وفي هذا المعنى يقول الطبريُّ: «وفي حثِّ الله ﷻ عبادَه على الاعتبار بما في آي القرآن، من المواعظ والبيِّنات، بقوله جل ذكره، لنبيه ﷺ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، وقوله: ﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ

(١) ينظر على سبيل المثال: سلسلة الأحاديث الصحيحة (ح ح ١٩٥٥: ١٩٦٢).

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (١/ ٢٧٨ برقم ٨٤).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٤٣٥).

مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧] وما أشبه ذلك من آي القرآن التي أمر الله ﷻ عباده، وحثّهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتعاظ بمواعظه = ما يدلُّ على أنَّ عليهم معرفةَ تأويل ما لم يُحجَب عنهم تأويله من آيه؛ لأنَّه يستحيلُ أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به، ولا معرفة من القيل والبيان والكلام؛ إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به. فأما قبل ذلك؛ فمستحيل أمرُه بتدبره، وهو بمعناه جاهل. كما يستحيل أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلام العرب ولا يفهمونه؛ لو أُنشد قصيدة شعر من أشعار بعض العرب ذات أمثال ومواعظ وحكم: اعتبر بما فيها من الأمثال، وادَّكر بما فيها من المواعظ إلا بمعنى الأمر له بفهم كلام العرب ومعرفته، ثم الاعتبار بما نبَّهه على ما فيها من الحكم، فأما وهو جاهلٌ بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق؛ فمحالٌ أمرُه بما دلَّت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعبر. بل سواءٌ أمرُه بذلك وأمرُ بعض البهائم به، إلا بعد العلم بمعاني المنطق والبيان الذي فيها. فكذلك ما في آي كتاب الله، من العبر والحكم والأمثال والمواعظ لا يجوز أن يقال: اعتبر بها، إلا لمن كان بمعاني بيانه عالمًا، وبكلام العرب عارفًا، وإلا بمعنى الأمر – لمن كان بذلك منه جاهلاً – أن يعلم معاني كلام العرب، ثم يتدبره بعدُ، ويتَّعظَ بحكمه وصنوف عبره. فإذا كان ذلك كذلك، وكان الله – جلَّ ثناؤه – قد أمر عبادَه بتدبُّره، وحثَّهم على الاعتبار بأمثاله، كان معلومًا أنه لم يأمر بذلك مَن كان بما يدلُّ عليه آيُه جاهلاً. وإذا لم يَجُزْ أن يأمرهم بذلك، إلا وهم بما يدلُّهم عليه عالمون؛ صحَّ أنهم بتأويل ما لم يحجب عنهم علمه من آيه عارفون»[1].

(١) تفسير الطبري (١/ ٧٦-٧٨). بتصرُّف واختصارٍ يسير.

المبحث الثاني: ضمان التعاهد بوجود البَّاعث
(موقع القرآن الكريم من منظومة العبادات الإسلامية)

يتوسَّطُ القرآن الكريم منظومة العبادات الإسلامية، فعنه تصدُر، وبه تنضبط. وإذا كانت تلاوة القرآنِ في نفسها عبادةً؛ فإنَّ الصلاة لا تصحُّ إلا بتلاوةِ قدرٍ من القرآن. وطالبُ العلم لا ينعقدُ لِواؤه ولا يشتدُّ عُودُه إلا بحظٍّ وافرٍ من علم القرآن روايةً ودرايةً. وتعليم القرآن الذي هو خير عملٍ لا يجوز أن يتصدَّر له إلا الحافظُ المتقنُ... إلى غير ذلك. فصار للقرآن موقعٌ من العبادات الإسلاميَّة؛ بحيثُ لا يتحقَّق بها المسلم خير تحقُّقٍ إلا إذا كان حافظًا للقرآن دائمَ التعاهد له، ويكون تمكُّنُه من حسن العبادةَ بقدر تيسُّر القرآن له؛ يستحضره ويَعيه في قلبه وعلى لسانه متى أراد، وفي هذا ضمانٌ للتعاهد بوجودِ الباعثِ وتعظيم قدره وتنوُّعِ مصادِره.

ومقصودنا بهذا المبحث بيانُ الدَّافعِ الذَّاتيِّ الذي لو لم يأتِ معه أمرٌ مستقلٌّ بالتعاهُد لَكانَ كافيًا في إثباته وإقراره، ولذا لن نتكلَّم في هذا المقام عن أمر النبي ﷺ بالتعاهُد والحثِّ عليه وبيان منهجه العمليّ في ذلك، فلهذا مقامٌ آخرُ. ولكن يكفينا في هذا المقام الإشارةُ إلى أنَّ إقامة الأسوة المنظورة في النبي ﷺ ضمانٌ لتحقيق التعاهُد – شأنه شأن كلِّ عبادة – على مُرادِ الله ﷻ.

وفيما يلي تفصيل القول في موقع القرآن من بعض العبادات.

أوَّلاً: تلاوة القرآن:

إنَّ تلاوة القرآن من أجلِّ العبادات وأشرفها؛ إذا اجتمع للمسلمِ تجويدُ الحروف وتجويد العمل به، وتالِيه على هذا الوجهِ حقيقٌ بوصفِ المؤمنِ؛ لقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ

بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]. وهو حقيقٌ بنجاح المسعى وربح التجارة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

وقد تواردت الأحاديث على الحثِّ على الإكثار من تلاوة القرآنِ؛ فعن ابن مسعود ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: «مَن قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الم حرف، ولكن ألف حرف، ولامْ حرف، وميمْ حرف»[١].

وقال ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله؛ يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ قال: «الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له: مع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ القرآن وهو يتعاهده، وهو عليه شديدٌ: فله أجران»[٣].

وعن أبي أمامة ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: «اقرؤوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»[٤].

---

(١) رواه الترمذي (ح٢٩١٠) كتاب ثواب القرآن؛ باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر. وصحَّحه الألباني في المشكاة (ح ٢١٣٧).

(٢) جزء من حديث رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ (ح ٢٦٩٩) كتاب الذِّكْر والدعاء والتوبة والاستغفار؛ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذِّكْر.

(٣) أخرجه البخاري واللفظ له (ح٤٩٣٧) كتاب التفسير؛ باب: عبس وتولَّى، ومسلم (ح٧٩٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه.

(٤) أخرجه مسلم (ح٨٠٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة.

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قـال: «يُقـال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتِّل كما كنت ترتِّل في الدنيا؛ فإنَّ مترلتك عند آخر آية كنت تقرؤها»[1].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: «أديموا النظر في المصحف»[2].

والآثار الدَّالة على شرف هذه العبادة الجليلة أكثر من أن تُحصـر، وأشهر من أن تُذكر.

وهناكَ تلازُمٌ بين كثرة تلاوة القرآنِ، وقوة استحضاره عن ظهـر قلبٍ. والواقع شاهدٌ بأنَّ الذين يحافظون على قراءة وِردٍ يوميٍّ من القرآن يكونون أكثر استحضارًا له من غيرهم ممن لا يحافظون على وِردِهم منه.

وكثيرٌ من المسلمين قد حَفِظَ سورًا وآياتٍ من القرآن؛ لأنَّه يحافظُ على قراءتها كأورادٍ مُوظَّفةٍ صحَّت بها الأحاديث؛ كسورة الكهف يوم الجمعـة، وسورة الملك قبل النوم، وقراءة آية الكرسيّ عقيب الصلوات المفروضات، وقبل النوم، وكذا الآيتين الأخريين من سورة البقرة...وغير ذلك.

ثانيًا: التدبُّر:

التدبُّر هو مقصودُ قراءة القرآن ومطلوبُها، به شفاءُ الصدور، ونور القلوب، وانكشاف الحُجُب، وبه تُستترل البركاتُ، وتُستمطر الرحماتُ، ويُفتح للمرء من معاني القرآن وأسراره بِقدر ما يحصل له من ذلك. والقلوب هي آلة التدبُّرِ؛ لقول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ

---

(١) رواه أبو داود (ح١٤٦٤)، كتاب الصلاة؛ باب كيف يسـتحب الترتيـل في القـراءة، والترمذي (ح٢٩١٤)، كتاب ثواب القرآن؛ باب (١٨)، وغيرهما. وصححه الألباني في الصحيحة (ح ٢٢٤٠).

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ١/ ٢٨٢ برقم ٩٦.

قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، وبيَّن الله تعالى أنَّ قلوب المؤمنين تَصغى وتفقهُ وتعقل وتبصر؛ فقال: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم:٤]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فدلَّ ذلك على أنَّ قلب المؤمن يَفقهُ، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، فدلَّ على أنَّ قلب المؤمن يعقل ويُبصر، وذلك هو التدبُّر؛ فالإصغاء أوَّل درجات التدبُّر، فيحصل لأولى النُّهى ما يفقهون به عن ربِّهم، فيَعقِلُهم عن مواطن الهلكة؛ لِتبصُّرِهم عاقبةَ الأمور ومآلها.

ولا يحصل من ذلك شيءٌ إلا بإمرار القرآن على آلة التدبُّر؛ وهي القلب، ولذا وصف النبيُّ ﷺ الخوارجَ بأنهم يقرؤون القرآن لا يجاوزُ تراقيَهم(١).

قال النوويُّ:«معناه: أنَّ قومًا ليس حظّهم من القرآن إلا مروره على اللسان؛ فلا يجاوز تراقيَهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب؛ بل المطلوب تعقُّله وتدبُّره بوقوعه في القلب»(٢).

وقال ابن مسعود ﷺ :«إن أقوامًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم،

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٣٦١٠) كتاب المناقب؛ باب علامات النبوة، ومسلم (ح ١٠٦٧، ١٠٦٨) كتاب الزكاة؛ باب الخوارج شر الخلق والخليقة.

(٢) شرح صحيح مسلم للنوويّ:(٣/ ٢٩٣).

ولكن إذا وقع في القلب، فرسخ فيه؛ نَفَعَ»[1].

وقال الحسن: «العلم علمان: علمٌ على اللسان، فذاك حُجَّة الله على ابن آدم، وعلمٌ في القلب، فذاك العلم النافع»[2]. وقال «إنَّ من كانوا قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربّهم، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها في النهار»[3].

وحظُّ القلب من ذلك التدبُّرِ الصادق المثمر زيادةُ الإيمانِ، قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢]، وقال: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٤].

يقول القرطبي: «قال العلماء: يجب على القارئ إحضار قلبه، والتفكر عند قراءته؛ لأنَّه يقرأ خطاب الله الذي خاطب به عباده، فمن قرأه و لم يتفكَّر فيه، وهو أهلٌ أن يُدركه بالتذكُّر والتفكُّر = كان كَمَن لم يقرأه، و لم يصل إلى غرض القراءة من قراءته، فإنَّ القرآن يشتمل على آياتٍ مختلفة الحقوق، فإذا ترك التفكُّر والتدبُّر فيما قرأ استوت الآيات كلها عنده، فلم يُراعِ لواحدة منها حقَّها، فَثَبَتَ أنَّ التفكُّر شرطٌ في

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٧٥) كتاب صلاة المسافرين وقصرها (٤٩) باب ترتيل القراءة واجتناب الهذّ.

(٢) سنن الدارمي (١/ ٣٧٣-٣٧٤، برقم ٣٧٦)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣٤٣٦١)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ١٩٠-١٩١) موقوف على الحسن، وإسناده صحيح إليه. وهو في زيادات المروزيِّ على زهد ابن المبارك مُرسلٌ (ص ٣٣٢ برقم ١١٦١).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٥١).

القراءة يتوصل به إلى إدارك أغراضه ومعانيه، وما يحتوي عليه من عجائب ... وأيضًا؛ فإنَّ ترديد الآية والتخشُّع والبكاء عندها سنَّة القارئ، فإذا لم يعرف ما يقرأ؛ لغفلته أو لجهله به = لم يُميِّزْ موضعَ الترديد، ولا جاءت عينُه بدمع، فصحَّ أنَّ سُنَّتَه - إذا كان عالـمًا باللسان فَهِمًا مميـزًا - أن يقرأ مُتفكِّرًا»[1].

وعلاقة استحضار القرآن عن ظهر قلب بالتدبُّر جليَّةٌ، فكلَّما كان القارئ مستحضرًا لآياته كان أقدر على التفرُّغ لتدبُّرها، فالاستحضار والتدبُّر عملانِ للقلب، فإن صَرَفَ القارئُ الهمَّ الأكبر من قلبه للاستحضار - وذلك في حال كونه سيئ الحفظِ - شُغِل عن التدبُّر، ومثاله الذي يصرف همَّه إلى تجويد حروفه بحيث يستغرقه تدقيق المخارج، وضبط مقادير الغُنن والمدود .. ونحو ذلك = فإنَّه ينصرف - ولا شكَّ - عن الوقوف مع معانيه، والعكوف على دلالاته متدبِّرًا.

وكلَّما كان القارئ جامعًا لكتاب الله ﷻ حافظًا لـه مستحضـرًا لآياته؛ فإنَّ ذلك يشحذُ آلة التدبُّر من وُجوه غير ما ذُكرَ:

الأول: أنَّ آيات القرآن الكريم يفسّر بعضها بعضًا، ويستبينُ متشابهُها بردِّه إلى مُحكمها، وهو ما لا يتحقَّق للقارئ إلا إذا كان حافظًا للقرآنِ كلِّه أو لقدر كبير منه حفظًا متقنًا يساعده على سرعة الاستحضار ودقَّته.

الثاني: أنَّ التضلُّع من أساليب القرآن الكريم وبلاغته، ومخالطة ألفاظه ومصطلحاته يُنمِّي ملكة التدبُّر ويصقلها، والحاصِل للقارئ الحافظ المتعاهد من ذلك أكبرُ من غيره، وعلى قدر ذلك له يكون تدبُّره.

---

(١) التذكار (ص ١٩٩-٢٠٠)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٣٢٦).

الثالث: أنَّ من أوسع أبواب التدبُّرِ النظرَ في المتشابه اللفظيّ وسياقاته ودلالاته، وفروق المفردات، والتقديم والتأخير، والحذف والزيادة... وغير ذلك من دقائق التشابُه اللفظيّ، وهذا لا يتأتَّى إلا لمن اجتازَ حفظُه للقرآن واستظهارُه له حدودَ التردُّد في متشابهاته.

فلما كانت عبادة التدبُّر واجبةً وإتقانها - على الغايةِ - قد لا يتحقق إلا للحافظِ المتقن الذي لا يتفلَّت منه القرآن = صار حفظُ القرآن من آكد الأسباب المعينة على التدبُّر، ولا يخفى أنَّ شرف الوسيلة من شرف الغاية، فكان الأمر بالتدبُّر أمرًا ضِمنيًّا بالحفظ والتعاهد.

فالحال أنَّ بلوغ الكمالِ البشريّ من عبادة التدبُّر قد يتوقَّف على قوةِ استحضار الـمُتدبِّر لعموم آيات القرآن الكريم. ومتى ما أدمن القارئ على تدبُّره وانشغل به عمَّا سواه من القراءة المجرَّدة عنه = رسخ القرآن في قلبه وثبت محفوظه منه، بحيث لا يتعنَّى قليلاً ولا كثيرًا في استحضار ما أراد منه متى أراد. والله الموفِّق.

ثالثًا: العلم الشرعيّ:

القرآن هو رأس العلم، فمن لم يأخذ بحظِّه من علم القرآن فلا يتخيَّل أن يُعدَّ في العلماء. ولا يُبرِّزُ طالب العلم الشرعيّ، ولا يتأهَّل في أيّ فرعٍ من فروعه إلا بقدر ما ينهل من علم القرآن؛ إذ هو الأصل الـمُقدَّم على غيره.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨-٤٩].

قال ابن كثير: «القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق، أمرًا

ونهيًا وخبرًا، يحفظُه العلماء، يسَّره الله ﷻ عليهم حفظًا وتلاوةً وتفسيرًا»[١]. وقال البيضاوي: «بَل هُوَ بل القرآن آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ يحفظونه لا يقدر أحد على تحريفه»[٢]. وفيه إشارةٌ إلى صفة من صفات الذين أوتوا العلم، وهي أنَّ القرآن محفوظٌ في صدورهم بَيِّنُ الدلالة ظاهر الحُجَّةِ. ومَن لم تكن هذه صفتُه؛ فقد انخرمَ في حقِّه أحدُ أهمِّ شروط الإمامة في العلم. والله أعلم.

وعن حذيفة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة»[٣]. قال ابن حجر: «قوله: "ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة" كذا في هذه الرواية، بإعادة (ثُمَّ) وفيه إشارة إلى أنَّهم كانوا يتعلمون القرآن قبل أن يتعلموا السنن، والمراد بالسنن ما يتلقونه عن النبي ﷺ واجبًا كان أو مندوبًا»[٤].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: «إذا أردتم العلمَ فأثيروا القرآن؛ فإن فيه علم الأوَّلين والآخرين»[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٨٦).

(٢) تفسير البيضاوي (٤/ ١٩٧).

(٣) متفق عليه: البخاري (ح ٦٤٩٧)؛ كتاب الرقاق؛ باب رفع الأمانة، ومسلم (ح ١٤٣)؛ كتاب الإيمان؛ باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب، وعرض الفتن على القلوب.

(٤) فتح الباري (١٣/ ٣٩).

(٥) أخرجه بهذا اللفظ ابن المبارك في الزهد (٢/ ٦٢٢-٦٢٣ برقم ٧٦٣) ومن طريقه الفريابي في فضائل القرآن (ص ١٨١- ١٨٢ برقم ٧٨)، وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (١/ ٢٧٦ برقم ٧٩)، قال: حدَّثنا عبد الرحمن عن سفيان.. فذكره بلفظه. وهو بهذا اللفظ في مختصر قيام الليل (ص ١٧٣). كما أخرجه غيرهم. وهو صحيح؛ بعض طرقه على شرط الشيخين.

وقد كان علماء السَّلف يُوصون طلّاب العلم أن يبدؤوا بالقرآن الكريم، يتعلَّمون حروفه ومعانيه، فإذا رَأَوْا أنَّهم قد حصَّلوا من ذلك قدرًا كافيًا نقلوهم إلى التخصُّص؛ قال ابن عبد البر: «طلبُ العلم درجات ومناقل ورُتَب؛ لا ينبغي تعدِّيها، ومَن تعدَّاها جُملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدى سبيلهم عامدًا ضلَّ، ومن تعداه مجتهدًا زلّ. فأوَّل العلم حفظ كتاب الله ﷻ وتفهمه، وكل ما يعين على فهمه فواجب طلبُه معه. ولا أقول: إنَّ حفظَه كلَّه فرضٌ، ولكني أقول: إنَّ ذلك شرط لازمٌ على مَن أحبَّ أن يكون عالـمًا فقيهًا ناصبًا نفسه للعلم»[1].

وقال النوويُّ: «وينبغي أن يبدأ من دروسه على المشايخ، وفي الحفظ والتكرار والمطالعة = بالأهمّ فالأهم، وأوَّلُ ما يبتدئُ به حفظُ القرآن العزيز، فهو أهمُّ العلوم، وكان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن حفِظَ القرآن. وإذا حَفِظه فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما اشتغالاً يؤدي إلى نسيان شئ منه أو تعريضه للنسيان»[2].

وقال ابن تيمية: «وأمَّا طلب حفظ القرآن فهو مقدَّمٌ على كثير مما تسميه الناس علمًا، وهو إما باطل أو قليل النفع. وهو أيضًا مقدَّم في التعلم في حق من يريد أن يتعلم علم الدين من الأصول والفروع، فإن المشروع في حق مثل هذا في هذه الأوقات أن يبدأ بحفظ القرآن فإنه أصل علوم الدين»[3].

وقال القرطبيُّ: «فلما كان القرآن الذي هو كلام ربنا ﷻ ومعجزة

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢ / ١١٢٩).

(٢) المجموع (١/ ٣٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٥٤).

نبينا ﷺ ومنبع العلوم ومعدن المعارف والفهوم كان على العاقل العالم المؤمن المسلم الدَّين الموحد قراءته ودراسته وتفهمه وتلاوته وعلى قدر قراءته وتلاوته وتفهُّمه يكون عمله وإيمانه وإسلامه وتوحيده وفضله كله وإذا كان ذلك كذلك كان قراءة القرآن أفضل الأعمال وأسنى المقامات والأحوال وأشرف الأذكار والأقوال»[١].

وفي هذا المنهج المباركِ تقديمٌ للأصلِ، وبدْءٌ بالأهمِّ، يقتضي أنْ يحفظَ الطالبُ القرآن الكريم صغيرًا، فلا يتفلَّت منه كَتفلُّتِه ممَّن حفِظَه على كِبَرٍ. وهو إذا شبَّ على العهدِ حاذَرَ أن يتفلَّتَ منه فشدَّ عليه نياطَ قلبه تعاهُدًا لروايته، ومُفاتشةً عن درايته، وتخلُّقًا برعايته. فإذا تصدَّرَ وصار شيخًا معلِّمًا يُطلبُ عليهِ ارتقى بأن يجودَ بتعاهُده طبعًا؛ بعد أن كان يتجشَّمُه تكلُّفًا.

رابعًا: تعلُّم القرآن وتعليمه:

خير الناس من تعلَّم القرآن وعلَّمه ، فعن عثمان ﷺ عن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه ». وفي رواية: «إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه»[٢].

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة، فقال: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطع رحم؟» فقلنا: يا رسول الله؛ نحبُّ ذلك. قال: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله ﷻ خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من

---

(١) التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٣).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٥٠٢٧، ٥٠٢٨) كتاب فضائل القرآن؛ باب: خيركم مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه.

أربع، ومن أعدادهن من الإبل؟»[1]. وقال ﷺ: «من علَّم آية من كتاب لله ﷻ كان له ثوابها ما تُليت»[2].

وقد سئل الثوري عن الجهاد وإقراء القرآن؛ فرجَّح الثاني، واحتج بحديث عثمان رضي الله عنه[3].

ولا شكَّ أنَّ الجامع بين تعلُّم القرآن وتعليمه مُكمِّلٌ لنفسه ولغيره، جامعٌ بين النفع القاصر والنفع المتعدي، ولهذا كان أفضل ، وهو من جملة من عنى الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]. والدعاء إلى الله يقع بأمور شتى: من جملتها تعليم القرآن، وهو أشرف الجميع[4].

وخير الناس وأفضلهم مَن تعلَّم القرآن حقَّ تعلُّمه، وعلَّمه حق تعليمه، ولا يُتمكَّن من هذا على الوجه الذي يرضاه ربُّ العالمين إلا بإتقان حفظ القرآن الكريم روايةً ودرايةً ورعايةً، ومثل هذا الإنسان يُعد كاملاً لنفسه مكملاً لغيره ، فهو أفضل المؤمنين مطلقًا، وقد ورد عن عيسى عليه السلام: «من عَلِم وعمِل وعلَّم يُدعى في الملكوت عظيمًا»[5]. والفرد الأكمل من الجنس هو النبي ﷺ ثم الأشبه

---

(١) أخرجه مسلم (ح ٨٠٣) كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب: فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلُّمه. والكوماء من الإبل: العظيمة السنام. يُنظر: إكمال المُعلم بفوائد مسلم (٣/ ١٧٢).

(٢) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح ١٣٣٥)، وعزاه إلى أبي سهل القطَّان في حديثه عن شيوخه.

(٣) ينظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٩).

(٤) ينظر: فتح الباري (٨/ ٧٤٧-٧٤٩)

(٥) أخرجه زهير بن حرب في العلم (٧).

فالأشبه[١].

قال القرطبي: «قال العلماء: تعليم القرآن أفضل الأعمال؛ لأنَّ فيه إعانة على الدين ، فهو كتلقين الكافر الشهادة لِيُسلم»[٢].

و لم يُبِح الله ﷻ التحاسُد – الذي هو بمعنى الغبطة – إلا في بذل العلم وتعليمه، وبذل المال وإنفاقه في الخير، وذلك لما في العلم – وبخاصة القرآن– من حياة للقلوب ، وما في المال من حياة للأبدان، فعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال :«لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها ويعلمها»[٣].

والقرآن رأس الحكمة، ومعينها الذي لا ينضب، ومنبعها الذي لا يجف، فمتعلم القرآن ومُعلِّمه أحق الناس بهذا الحديث وأولاهم به، يقول الحافظ :«قوله (الحكمة) اللام للعهد؛ لأنَّ المراد بها القرآن... وقيل الحكمة: كل ما منع من الجهل وزجر عن القبيح»[٤].

وتعلُّم القرآن وتعليمه يتناول تعلُّم حروفه وتعليمها، وتعلُّم معانيه وتعليمها، وهو أشرف قسْمَيْ تعلمه وتعليمه، فإنَّ المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة إليه، فتعلُّم المعنى وتعليمه تعلم الغاية وتعليمها، وتعلم اللفظ المجرد وتعليمه تعلُّم الوسائل وتعليمها، وبينهما كما بين الغايات

(١) عون المعبود (٤/ ٢٢٩).

(٢) التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٤٤) .

(٣) رواه البخاري (ح ٧٣) كتاب العلم؛ باب الاغتباط في العلم والحكمة، ومسلم (ح ٨١٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب: من يقوم بالقرآن ويُعلِّمه.

(٤) فتح الباري (١/ ٢٠٣).

والوسائل[1].

وعلى كلٍّ؛ فإنَّ القيام بهذه المسئولية الجليلة من تعليم القرآنِ يتطلَّب أن يكون المرءُ مُتقنًا لكتاب الله ﷻ إتقانًا يؤهِّله للقيام بمهمَّة التعليم والتربية القرآنية. وقد قيل: فاقد الشيء لا يُعطيه. فكيف يعلِّم القرآنَ مَن لا يَعلُمه ولا يستحضره عن ظهر قلبٍ؟ وكيف يطالِب طلّابه بالتعاهدِ وهو لا يتعاهد؟!

ولا شكَّ أنّ معلِّم القرآن يستفيد من تعليمه رسوخَ محفوظه، ودقَّة استحضاره، فلكثرة ما يتوارد عليه قراءةً لطلّابه وإقراءً لهم، وعرضًا عليهم، وسماعًا منهم؛ يجود حفظه بحيث لا تنخرم منه واوٌ ولا فاءٌ، وبحيث يكون أقدرَ الناسِ على ضبط متشابهه، وهذا مما يؤيده الواقع ويشهد له. والعلم يزكو على الإنفاق. وقد تأذَّن الله ﷻ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

خامسًا: الصلاة:

لا تصحُّ صلاةٌ إلّا بقراءة قدرٍ من القرآن، فقراءة الفاتحةِ واجبة في الصلاة عندَ جمهور علماء المسلمين؛ لقول النبي ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[2]. ثمَّ اختلفوا في القدر الزائد على الفاتحة، ولا خلاف على استحباب قراءة ما تيسَّر من القرآن في الركعتين الأوليين[3].

وبما تيسَّر للمصلِّي قراءته فقد ثبت الأجرُ إن شاء الله، ولكنَّ

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٩٦).

(٢) أخرجه البخاري عن عبادة رضي الله عنه (ح٧٥٦) كتاب الأذان؛ باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، ومسلم (ح٣٩٤) كتاب الصلاة؛ باب وجوب قراءة الفاتحة في كلِّ ركعة.

(٣) ينظر: كشاف القناع عن متن الإقناع (١/ ٣٤٢).

المتتبِّع لقراءة النبي ﷺ يجد أنَّه كان ينوِّع فيها على السُّور وعلى القدر المقروء. وقد ذكر الإمام الألبانيُّ السُّور التي ثبت أنَّ النبيَّ ﷺ قد قرأ بها في الصلوات، وهي تستوعب قدر كبيرًا من سور القرآن الكريم[١].

ويتحقَّق تمام الاقتداء بالنبي ﷺ بتنويع القراءة في الصلواتِ على السُّور كما كان النبي ﷺ يفعل، وهذا لا يقوم بها إلا حافظٌ متقِنٌ مستحضرٌ للقرآن عن ظهر قلب.

كذلك؛ فإنَّ النبي ﷺ سنَّ قراءة سور معيّنة في صلوات معينة؛ كقراءة سورتي (السجدة) و(الإنسان) في صلاة الفجر يوم الجمعة، وقراءة سورتي (الجمعة) و(المنافقون) أو سورتي (الأعلى) و(الغاشية) في ركعتي الجمعة، وقراءة سورتي (ق) و(اقتربت) أو (الأعلى) و(الغاشية) في ركعتي صلاة العيد، وقراءة سور (الأعلى) و(الكافرون) والمعوِّذات في ثلاث ركعات الوتر[٢]... وغير ذلك. وهذا أيضًا لا يستطيعه إلا حافظٌ متعهِّدٌ.

ومع شرف الإمامة؛ فإنَّها مقامٌ لا ينبغي إلا للأقرإ؛ عن أبي مسعود الأنصاري أنَّ النبي ﷺ قال: «يؤمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله تعالى»[٣]. والأفضلية المُطلقة التي تؤهِّل المسلم لهذا المقام الجليل لا تتأتَّى إلا لحافظٍ مُتعهِّد.

وتؤثِّر الصلاةُ تأثيرًا إيجابيًّا في جودة الحِفظ، وهذا معلومٌ لمُجرِّبه،

(١) انظر: صفة صلاة النبي ﷺ (ص ٧٥) تحت باب: جمعه ﷺ بين النظائر وغيرها في الركعة، و(ص ص ٧٩-٩٢) تحت باب: ما كان يقرؤه ﷺ في الصلوات.

(٢) ينظر تخريج الآثار الدالة على ذلك في صفة صلاة النبي ﷺ باب: ما كان يقرؤه ﷺ في الصلوات (٧٩-٩٢).

(٣) رواه مسلم (ح٦٧٣).

و لم يزل المجرِّبون يوصون الحفَظَةَ بتعاهد القرآن في الصلاة؛ فإنَّــه يُثبِّــتُ المحفوظَ ويُجوِّدُه.

قيام الليل:

ولقيام الليل سرٌّ عجيب، فقراءة الليل وصلاته أشدَّ ثباتًا وأبقى أثرًا؛ يقول تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل:٦]. وقُرئ (وَطْئًا) بفتح الواو وإسكان الطاء[١]؛ أي أثبتُ في الخير وأحفظُ في الحفظُ، وفيــه إشارة إلى ثقل القيام على النفس؛ لسكونها إلى الراحة في الليل وغلبة النوم فيه على المرء[٢].

كما قرئ (وِطَآءً) بكسر الواو وفتح الطاء وألف ممدودة بعدها[٣] ، وهو من المواطأة، أي الموافقة؛ لأنَّ البال يخلو من أشغال النهار وأشغابه؛ فيوافق قلب المرء لسانه، وفكره عبارته، ويُواطئُ فيه السمعُ لهدوء الصوت بالليل، والبصرُ؛ لخفوت الضوء= القلبَ لفقد الخطرات[٤].

فمُصلِّي الليل القائم بالقرآن أكثر طمأنينة، وأفرغ له قلبًا؛ ذلك أنه لا تعرض له حوائجُ، ولا يُخالجه القراءةَ صوتٌ في هدأة الليل.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «وإذا قام صاحب

---

(١) وهي قراءة العشرة إلا أبا عمرو وابن عامر. ينظر: النشر (٢/ ٢٩٣).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز (٥/ ٣٨٨).

(٣) وهي قراءة أبي عمرو وابن عامر من العشرة. ينظر: النشر (٢/ ٢٩٣).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٦٩-٣٧٤)، المحرر الوجيز (٥/ ٣٨٨)، والتحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٢-٢٦٣).

القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإذا لم يقم به نسيه»[١].

فينبغي أن يكون اعتناءُ حامل القرآن بقيام الليل؛ يُعرَف به إذ الناس نائمونَ. وإذا كان شرف المؤمن قيام الليل؛ فإنَّ أحقَّ المؤمنين بالقيام على شرفه هم حملةُ القرآنِ، وعن النبي ﷺ أنه قال: «نِعْمَ الرجلُ عبد الله لو كان يصلي من الليل»[٢].

وقيَّد النبي ﷺ جلال المنزلة التي يستشرف لها الناسُ، وتتطاول إليها الهمم بالقيام بحقِّ القرآن، فقال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الله وآناء النهار»[٣]. فإنَّ مَن أوتيَ القرآن فلم يقُم به آناء الليل وآناء النهار فهو مغبونٌ حقيقٌ أن يُعزَّى.

وانظر إلى عظيم ثواب قائم الليل الذي يرتع في رياض القرآنِ، يعبُّ منها عبًّا، فعن ابن عمرو أنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كُتب من المقنطرين»[٤].

فمن أراد أن يكون من المقنطرينَ فليتعاهد القرآنَ؛ ليتمكَّن من

(١) أخرجه مسلم (ح ٧٨٩) كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب الأمر بتعهُّد القرآن.

(٢) أخرجه البخاري عن ابن عمر (ح١١٢٢) كتاب التهجد؛ باب فضل قيام الليل، ومسلم (٢٤٧٩) كتاب فضائل الصحابة؛ باب فضائل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري عن ابن عمر (ح٥٠٢٥) كتاب فضائل القرآن؛ باب اغتباط صاحب القرآن، ومسلم (ح٨١٥) كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب فضل من يقوم بالقرآن ويُعلِّمه.

(٤) أخرجه أبو داود (ح١٣٩٨) كتاب الصلاة؛ باب تحزيب القرآن. وصححه الألباني في الصحيحة (ح٦٤٢).

استظهار ألف آيةٍ في ليلةٍ.

سادسًا: منازلُ شريفةٌ لا تنبغي إلا لحامل القرآن:

وقد سَلَف الكلام في الإمامة، وهي من أشرف المنازل التي لا تنبغي إلا لحامل القرآن.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان القرَّاء أصحاب مجلس عمر ﷺ ومشاورته كهولاً كانوا أو شبَّانًا»[1].

ولقي نافع بن عبد الحارث عمرَ ﷺ بعُسْفَانَ، وكان عمرُ ﷺ يستعمله على مكة، فقال: مَن استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا. قال: فاستخلفت عليهم مولىً؟! قال: إنه قارئ لكتاب الله ﷻ، وإنه عالم بالفرائض. قال عمر: أما إنَّ نبيكم ﷺ قد قال: «إنَّ الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين»[2].

وعن أبي موسى ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ من إجلال الله إكرامَ ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام السلطان المقسط»[3].

فهذه منازل لا تنبغي إلا لِحامل القرآنِ القائم بحقِّه حفظًا لروايته ودرايته ورعايته. والمتشوِّفُ لها ينبغي أن يكون ممَّن لهم حظٌّ عظيمٌ من تعاهُد القرآن الكريم.

(١) أخرجه البخاري (ح٤٦٤٢) كتاب التفسير؛ باب: خذ العفو وأْمر بالعرف.

(٢) أخرجه مسلم (ح ٨١٧)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب فضل مَن يقوم بالقرآن ويعلِّمه.

(٣) أخرجه أبو داود (ح ٤٨٤٣) كتاب الأدب؛ باب في تتريل الناس منازلهم. وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (ح ٢١٩٩).

المبحث الثالث: ضمان التعاهُد من خلال ضمان قبول المَحِلِّ

ممَّا امتنَّ الله ﷻ به على الإنسانِ أنَّه علَّمه البيان وأودع فيه من الملكات ما جعله محلاً صالحًا لتلقِّي العلم وتحمُّله وتذكُّره؛ بشرطين: أحدهما: أن يُعملَ تلك الملَكات فيما خُلِقت له، والشرط الثاني: أن يتَّبع المنهج الصحيح في التعليم والتعلُّم. فإذا اتَّفقَ لإنسانٍ هذان الأمرانِ كُفِلَ له سببٌ من أسباب العلمِ روايةً ودرايةً ورعايةً. فإذا أقبلَ و لم يُعرِضْ انصرفتْ حواسُّه إلى العلم بالناموس الإلهيِّ المودَع فيها، وإذا وافقَ منهجًا صحيحًا في طلب العلم فقد أفلح وأنجح.

وفيما يأتي نبيِّنُ الضمان الربانيَّ للتعاهُد بضمان هذين الأمرين.

المطلب الأوَّل: صلاحية الحواسِّ للتحمُّل متى لم يُعرِض صاحبُها

إنَّ الله ﷻ أخرج النَّاس من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، ولكنَّه أودع فيهم الحواسَّ التي يكتسبون بها معارفهم ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، أي: رزقكم عقولاً تفقهون بها وتُميِّزون بها الخير من الشرِّ، وبصَّركم بها ما لم تكونوا تبصرون، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به الأصوات؛ فيفقه بعضكم عن بعض ما تتحاورون به بينكم، والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص؛ فتتعارفون بها وتميزون بها بعضًا من بعض، والقلوب التي تعرفون بها الأشياء؛ فتحفظونها وتفكرون فتفقهون بها[1]. وإنما جعل الله هذه في الإنسان؛ ليتمكن بها من عبادة ربه

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٣١٥).

تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه[1]، وخصَّ هذه الأعضاء بالذكر؛ لشرفها وفضلها، ولأنَّها مفتاح كل علمٍ، وآلة كلِّ معرفة، وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاهم إياها[2]. ففيه إرشادٌ لهم إلى إعمال تلك الحواسِّ في تحصيل العلم الحقيقيِّ الذي فيه صلاح دنياهم وأخراهم، وهم الموصوفون بالعلم؛ قال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]، ومن لم يفعل فهم الموصوفون بالضلال والغفلة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]؛ أي: لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم من خلقه قلوبٌ لا يتفكرون بها في آيات الله، ولا يتدبرون بها أدَّلته على وحدانيته، ولا يعتبرون بها حججه لرسله، فيعلموا توحيد ربهم، ويعرفوا حقيقة نبوة أنبيائهم، فوصفهم ربنا ﷻ بأنهم لا يفقهون بها؛ لإعراضهم عن الحق وتركهم تدبر صحة الرشد وبطلان الكفر. ولهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات الله وأدلته؛ ليتأملوها ويتفكروا فيها، فيعلموا بها صحة ما تدعوهم إليه رسلهم، وفساد ما هم عليه مقيمون من الشرك بالله وتكذيب رسله، فوصفهم الله بتركهم إعمالها في الحق بأنهم لا يبصرون بها. وكذلك لهم آذانٌ لا يسمعون بها آيات كتاب الله؛ فيعتبروها

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٩٠).

(٢) ينظر: الزمخشري (٣/ ٤٥٨)، وزاد المسير(٢/ ٥٧٥)، واللباب في علوم الكتاب (١٢/ ١٢٩) وتفسير السعدي (ص٤٤٥).

ويتفكروا فيها، ولكنهم يعرضون عنها[١]. فالحواسُّ صالحةٌ ولكنَّهم عطَّلوها بإرادهم.

ومما امتنَّ الله به على الإنسان تلك الذاكرةُ العجيبـــةُ. إنَّ الـــذاكرة البشرية شيءٌ معقَّدٌ جدًّا، وعلى الرغم من أنَّ علماء النفس ظلُّوا يدرسونها على مدى سنين طويلة فإنهم لا يكادون يفهمونها بكلِّ تعقيداتها[٢]. وتمر عملية التذكُّر بثلاث مراحل: الأولى التعلُّم، والثانية الاحتفاظ أو التخزين، والثالثة الاستدعاء أو الاستحضار، وتؤثِّر في كلِّ مرحلةٍ منها عوامل كثيرةٌ ما زال علماء النَّفس والتشريح يدرسونها محاولين الوقوف علـــى بعـــض أسرارها[٣].

ويتميّز القرآنُ بأنَّه فاعلٌ في تلك الحواسِّ بما ليس لغيره من الكلام، فلمَّا كان الشأن قبول الحواسِّ ووجود المؤثِّر الفاعل لم يجد الكفَّـــار مـــا يحُول بين أتباعهم وبين التأثُّر به إلا أن يُعطِّلوا حواسَّهم بإرادهم، فتواصوا بينـــــــــهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإيـــاكم أن تلتفتـــوا، أو تصغوا إليه، ولا إلى مَن جاء به؛ فإن اتَّفق أنكم سمعتموه، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه؛ فـــالْغَوا فيه، وتكلموا بالكلام الذي لا فائدة منه، بل فيـــه المضرة، ولا تُمكِّنوا أحدًا يملك عليكم الكلام به، وتلاوة ألفاظه ومعانيه، فإنَّكم إن فعلتم ذلك فقد تغلبون. هذا لسان حالهم، ولسان مقـــالهم في الإعراض عن هذا القرآن. فإنَّهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحقِّ إلا في

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٥٩٣) بتصرُّف واختصار.

(٢) يُنظر: ذاكرة الإنسان بِنى وعمليات (ص ١١).

(٣) يُنظر: ثمَّ صار المخُّ عقلاً (ص ١٠٢-١٠٣).

حال الإعراض عنه والتواصي بذلك. ومفهوم كلامهم: أنهم إن لم يلغوا فيه، بل استمعوا إليه، وألقوا أذهانهم؛ أنهم لا يغلبون، فإنَّ الحق غالبٌ غير مغلوب، يعرف هذا أصحاب الحق وأعداؤه[1].

ولما كان المحلُّ قابلاً للانفعال بمجرَّد سماع القرآنِ، وكان فهمُه مُترتِّبًا ترتُّبًا مباشرًا على سماعه = كان في سماعِه قيامُ الحُجَّة على المُشرك: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]، أي: حتَّى يسمع كلام الله ويفهم أحكامه وأوامره ونواهيه، فذكر السماع بالآذان؛ إذ هو الطريق إلى الفهم، وقد يجيء السماع في كلام العرب مستعملاً بمعنى الفهم؛ كما تقول لمن خاطبته فلم يقبل منك: أنت لم تسمع قولي؛ تريد: لم تفهمه[2].

---

(١) تفسير السعدي (ص٧٤٨) بتصرُّف.

(٢) المحرَّر الوجيز (٣/ ٩).

المطلب الثاني: ضمان صلاحية منهج الأخذ

سبق أن تكلمنا عن جانبٍ من حفظِ القرآن الكريم خلال إنزالــه بضمان حفظه من الشياطين، وباصطفاء الرسول الــمَلَكيِّ المؤهَّــل لأداء الرسالة إلى الرسول البشري ﷺ كما أرادها الله عزَّ وجلَّ.

وقد تضمَّن منهج التعليم الربَّانيِّ لمحمد ﷺ عدة ضــمانات أخــرى تَكْفُل حفظ القرآن وتعاهدَه، من ذلك أنّ القرآن نزل منجَّمًا، وفي نزوله منجَّمًا فوائدُ جليلةٌ منها: أن يتقوَّى فؤاد النبي ﷺ بتفريقه وتنجيمه حتّى يَعيَه ويحفظه؛ لأنّ المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئًا بعد شيء، وجزءًا عقيب جزء. ولو ألقي عليه جملة واحدة لتعيًّا بحفظه[1]. فألقي عليه الآية والآيتان ليرسخ في قلبه ويثبتَ. فنزوله منجَّمًا أعونُ لحفَّاظــه علــى حفظه وفهمه وتدبُّره[2].

وأتمَّ النبيُّ ﷺ قواعد هذا المنهج بأنَّه كان يعلِّم الصحابة ﷺ عشــر آياتٍ بعشر آياتٍ؛ فعن ابن مسعودٍ ﷺ؛ قال: «كنا إذا تعلَّمنا من الــنبي ﷺ عشر آيات من القرآن، لم نتعلَّم من العشر التي نزلت بعــدها؛ حــتى نعلم ما فيه». قيل لشريك: من العمل؟ قال: «نعم»[3].

وقال ﷺ: «كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهن حــتى يعرف معانيهنَّ والعمل بهنَّ»[4].

---

(١) الكشاف (٤/ ٣٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (ح ٢٠٩٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يُخرجاه، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١١٩ برقم ٥٤٩٥)، وفي شعب الإيمان (٢/ ٣٣٠ برقم ١٩٥٣).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٧٤)، وسنده صحيح.

وهذا نصٌّ صريحٌ مُحكَمٌ في أنَّ الصحابة ﷺ كان يحفظون القرآن حفظَ درايةٍ وحفظَ رعايةٍ، دلَّ على الأوَّلِ قولُه: (حتى يعرف معانيهنَّ)، وعلى الثاني قوله: (والعمل بهنَّ)، ثمَّ يكون حفظُ الرواية والاستظهار تابعًا لهما. وظاهر عبارةِ ابن مسعودٍ يدلُّ على أنَّه إجماعٌ عمليٌّ من الصحابةِ ﷺ، ويشهد له قول ابن عمر رضي الله عنهما: « لقد عشنا برهة من دهرٍ، وأحدنا يُؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ، فيتعلَّم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها؛ كما تتعلمون أنتم اليوم القرآن، ثم لقد رأيت اليوم رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ، ولا يدري ما آمره ، ولا زاجره ، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، وينتثره نثر الدقل»[1].

وقد استدلَّ الإمامان أبو جعفر النحاس وأبو عمرو الداني بأثر عبد الله بن عمر على أنَّ تعليم الوقفِ توقيفٌ من رسول الله ﷺ، وأنَّه إجماعٌ من الصحابة ﷺ[2]. ودلالته على المنهج النبويِّ في التعليم القرآنيِّ آكدُ وأوضحُ.

---

(١) أخرجه أبو جعفر النحَّاس في القطع والائتناف (ص ٢٧)، وابن منده في الإيمان (١/ ٣٦٩ برقم ٢٠٧)، وقال: «هذا إسناد صحيح على رسم مسلم والجماعة إلا البخاري». وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٨٣ برقم ١٠١) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبيّ. وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٧٠ برقم ٥٢٩٠)، والمستغفري في الفضائل (١/ ٢٧٥ برقم ٢٧٠)؛ وقال مُحققه: حسن غريب. قلتُ: والقاسم بن عوف الشيباني راوي الحديث عن ابن عمر ليس من رجال البخاري، وإنما روى له مسلم حديثًا واحدًا، ولم يُجمعوا على توثيقه. يُنظر: تهذيب التهذيب (٨/ ٢٩٣). والحديث حسنٌ لذاته، صحيح لغيره إن شاء الله.

(٢) ينظر: القطع والائتناف (ص٢٨)، والمكتفى (ص١٦).

ثمَّ ورَّثَ الصحابة ﷺ هذا المنهج لتابعيهم، فها هو أبو عبد الرحمن السُّلميُّ يقول: «حدثنا مَن كان يُقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل. قالوا: فعلمنا العلم والعمل»[(١)].

وأبو عبد الرحمن السُّلميّ هو رواي حديث: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه» عن عثمان بن عفَّان ﷺ، وقد قرأ القرآن وجوّده وبرع في حفظه، وعرض على عثمان وعليٍّ وابن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب ﷺ، وهو أحد المبرِّزين في التعليم القرآني؛ جلس يُعلِّم القرآن ويقرئه أربعين سنة[(٢)]، فاتَّضح أوَّل مَعلَمٍ للمنهج السلفيِّ في التعليم القرآنيِّ.

ومن لوازم هذا المنهج وضروريَّاته أنَّ التربية الكيفيَّة مقدَّمةٌ على التربيَّة الكمِّيَّةِ، وأنَّ المعيار الذي يتفاضلُ على أساسه المتعلِّمون هو التحقُّق العمليُّ بمقتضى ما يتعلَّمون؛ لا مقدار ما يستظهرونَ، فكان وِردُ المحفوظ الجديد لا يتجاوز عشرَ آياتٍ؛ كما دلَّت عليه الآثار المتقدِّمة، بل ربَّما لا يُجاوز خمس آياتٍ؛ كما صحَّ عن أبي العالية قال: قال عمر ﷺ: تعلموا القرآن خمسًا خمسًا؛ فإن جبريل عليه السلام نزل بالقرآن على النبي ﷺ خمسًا خمسًا. قال علي بن بكار (أحد رواة الأثر): قال بعض أهل العلم: مَن تعلَّم خمسًا خمسًا لم يَنْسَهُ[(٣)]. وعن إسماعيل بن أبي خالد قال: كان

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٨/ ٤٦٦ برقم ٢٣٤٨٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٥/ ٤٣٦ برقم ٣٠٥٤٩)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٧٤)، وحسَّنه محقِّقو المسند.

(٢) ينظر: معرفة القراء الكبار (١/ ٥٢-٥٧).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٣١ برقم ١٩٥٩)، وأخرج من رواية وكيعٍ عن =

أبو عبد الرحمن السُّلميّ يُعلِّمنا القرآن خمس آياتٍ بخمس آياتٍ[1].

وكذا؛ فإنَّ من لوازم ذلك المنهج أنَّ الـمُتعلِّم قد يمكث السنين الطوال في تعلُّم السورة الواحدة؛ فعن ابن عمر قال: تعلم عمر بن الخطاب ﷺ البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلمَّا أتمَّها نَحَرَ جزورًا[2].

وعن مالك أنَّه بلغه أنَّ ابن عمر رضي الله عنهما مَكَثَ ثمانيَ سنينَ في سورة البقرة يتعلَّمها[3].

ومن لوازم ذلك المنهج الاستمراريةُ والمداومةُ، فليس المقصود تحصيلَ الإجازاتِ والتخرُّجَ بالشهاداتِ؛ من أجل نَيْلِ الوظائفِ والعطايا، بل المقصود أن يُحصَّل العلم لعمل الآخرة.

ومن مفرداتِ هذا المنهجِ أنَّ جبريل كان يُدارس النبي ﷺ القرآن، فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»[4]. فكان جبريل عليه السلام يتعاهده في كل سنة، فيعارضه بما نزل عليه، فلمَّا كان العام الذي توفي فيه عارضه به مرتين؛ وعن فاطمة

= خالد بن دينار عن أبي العالية موقوفًا عليه؛ قال خالد بن دينار: قال لنا أبو العالية : خمسَ آياتٍ خمسَ آياتٍ؛ فإن النبي ﷺ كان يأخذه من جبريل خمسًا خمسًا. وقال البيهقي: خالف وكيعًا في رفعه إلى عمر ﷺ ورواية وكيع أصحُّ.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (١٥/ ٤٣٧ برقم ٥٠٥٥١).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٣١ برقم ١٩٥٧).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٣١ برقم ١٩٥٥، ١٩٥٦).

(٤) أخرجه البخاري (ح٦) كتاب بدء الوحي؛ باب (٥)، ومسلم (ح ٢٣٠٨) كتاب الفضائل؛ باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير.

رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ حدَّثها أنَّ جبريل كان يعارضُه بالقرآن كلَّ عامٍ مرَّةً، وأنَّه عارضَه في العام الذي قُبض فيه مرَّتين(١).

فأرسى منهج تلقي النبي ﷺ قواعد مُدارسة القرآن الكريم، وأفاد الحديث أنَّ مدارسة القرآن تُجدِّد العهد بمزيد غنى النَّفس، والغنى سبب الجود، فيكون المتعاهِدُ أجودَ ما يكونُ حال التعاهد والمدارسة، فكأنَّ تعاهدَ النبيِّ ﷺ لم يتوقَّفْ عند تعاهدِ الحفظِ والتلاوةِ والبيان، وإنَّما تسامى إلى تعاهد الجود، فلما اجتمع شرف الوقت وشرف المترول به والنازل والمذاكرة= حصل المزيد في الجود. والعلم عند الله تعالى(٢).

ومن أجلِّ دلالات تكرُّر المعارضةِ أن يُكرِّر الطالبُ العرض على مشايخه، ولا يكتفي بعرضة واحدةٍ، وإن تصدَّر وصار عَلَمًا مقصودًا، وإن كبُرتْ سنُّه ووهنت قوَّتُه. وفيه إشارةٌ إلى استحباب تكرير العرض على الشيخ نفسه، وخصوصًا إذا كان هذا الشيخ قد عُرِف بأنَّه من أهل الاستزادة في العلوم، وأنَّه ممن يجدِّد العهد بمظانِّه طلبًا وقراءةً وبحثًا وتصنيفًا، فإذا استوثق الطالب من ذلك كان حَريًّا بأن يجدِّد العهد بالقراءة على شيخه، ولو كان هو مَن كان في الإتقان.

والحاصل أنَّ بعض الطلَّاب قد يكتفي بختمة واحدةٍ، وبعضهم قد يقصد قصدًا إلى تكثير المشايخ وتعلية الأسانيد، وهو موقنٌ أنَّ ما سيحصل عليه لو عاود القراءة على شيخه أضعافُ أضعاف ما سيحصِّله من صاحب السند العالي أو من غيره المشايخ، وهو مع ذلك يستطيع الوصول

(١) رواه البخاري (ح٣٦٢٤) كتاب المناقب؛ باب علامات النبوة في الإسلام، ومسلم (ح ٢٤٥٠) كتاب فضائل الصحابة؛ باب فضائل فاطمة رضي الله عنها.

(٢) ينظر: فتح الباري (١/ ٣٣).

إلى شيخه بدون مشقَّة، ولا يتضجَّر به الشيخ. وفي ملازمة الشيخ العالِم الـمُعلِّمِ تعاهُدٌ للقرآن أيّما تعاهُدٍ. وقد رأينا علماء الحديثِ ربَّما يضعِّفون أحد الرُّواةِ في جملةِ مسانيده، ولكنَّهم يُصحِّحون روايته عن شيخٍ بعينِه؛ لطول ملازمته له، فيكون بصيرًا بحديثه ومرويَّاته.

المبحث الرابع: ضمان تعاهد القرآن الكريم من خلال تيسيره للذِّكْر

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: أربعة مواضع أوَّلها الآية ١٧].

والذِّكْرُ هو حفظُ الشيءِ تَذْكُرُه عن ظهر قلبٍ[١]. والذكر يقال ويُراد به هيئةُ للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلا أنَّ الحفظ يقال اعتبارًا بإحرازه، والذكر يقال اعتبارًا باستحضاره. كما يقال لاستحضار الشيءِ بالقلب أو بالقول، ولذا قيل: الذكر ذكران: ذكرٌ بالقلب، وذكر باللسان، وكلٌّ واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيانٍ، وذكر لا عن نسيان؛ بل عن إدامة الحفظ[٢].

ويأتي الذكر في القرآن الكريم على وُجوهٍ كثيرة أحدها الحفظ[٣]، ومن ذلك قوله: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٦٣]؛ يعني: احفظوا ما في التوراة، ولا تنسوه ولا تُغفلوه[٤].

والذي يظهر – والله أعلمُ – أنَّ تيسيرَ القرآنِ للذِّكر يشملُ تيسيرَه للحفظِ بمراتبه الثلاث: حفظ الرواية وحفظ الدراية وحفظ الرعاية.

قال ابن القيِّم: «لا تجد كلامًا أحسن تفسيرًا ولا أتمّ بيانًا من كلام الله سبحانه، ولهذا سمَّاه سبحانه بيانًا، وأخبر أنَّه يسره للذكر. وتيسيرُه للذكر يتضمَّن أنواعًا من التيسير؛ أحدها: تيسير ألفاظه للحفظ، والثاني:

(١) لسان العرب (٣/ ٥١٢)، وانظر: المحرَّر الوجيز (٥/ ٢١٥).

(٢) المفردات للأصفهاني (١/ ٢٣٧)، وبصائر ذوي التمييز (٣/ ٩).

(٣) ينظر: الوجوه والنظائر لمقاتل (ص٥٢)، والتصاريف (ص ١٥٨)، وإصلاح الوجوه والنظائر (ص ١٨١)، ونزهة الأعين النواظر (ص ٣٠٤).

(٤) ينظر: تفسير مقاتل (١/ ١١٢)، وتفسير الطبري (٢/ ٥٤).

تيسير معانيه للفهم، والثالث: تيسير أوامره ونواهيه للامتثال»[1].

فأمَّا تيسيره من جانب حفظ الرواية: أنَّ قراءته سهلة يسيرةٌ على اللسانِ، واستظهاره سهلٌ ميسَّرٌ على مَن رامَه، ولو كان طفلاً صغيرًا.

وعن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾؛ قال: هوَّنَّا قراءته[2].

وقال ابن عطية: «الذكر: الحفظ عن ظهر قلب»[3].

واللائقُ في حقِّ القرآنِ هو الأكمل، فيكون تيسيره للحفظِ شاملاً تيسير إحرازه ابتداءً، وتيسير استحضاره إن قُورنَ بغيره من المحفوظاتِ، وهذا المذهبُ يؤيِّده الواقعُ.

وتسهيله للحفظِ بمَا اشتمل عليه من حسن النظم، وسلامة اللفظ، وعروِّه عن الحشو، وشرف المعاني وصحتها، فله تعلُّق بالقلوب. وقوله ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾؛ أي: هل من طالبٍ لحفظه؛ ليعان عليه، وتكون زواجره وعلومه حاضرة في نفسه؟[4].

وأمَّا تيسير درايته: أي تيسيره للفهم، وقد ذهب الطبريُّ إلى أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ ؛ أي: ولقد سهلنا القرآن بأن بيَّنَّاه وفصلناه للذكر لمن أراد أن يتذكَّر ويعتبر به ويتعظ، فهل من مُعتبر ومتَّعظٍ يتذكَّر فيتعظ بما فيه من العِبَر والذِّكر؟[5] وتيسيره للمعتَبر

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٣٣١).

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ١٣٠-١٣١).

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٢١٥).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٨/ ١٧٧).

(٥) ينظر: تفسير الطبري (٢٢/ ١٣٠، ١٣١).

الـــمُتَّعظِ هو تيسير فهمٍ ولا شكٍّ، إذا لا عِبرة في كلامٍ غير مفهومٍ.

ويستأنس لذلك بقول ابن عباس: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾؛ قال: هل من مُتذكر؟[1].

قال ابن عاشور: «والتيسير: إيجاد اليســـر في شـــيءٍ... واليســـر: السهولة، وعدم الكلفة في تحصيل المطلوب من شيءٍ. وإذ كان القـــرآن كلامًا؛ فمعنى تيسيره يرجع إلى تيسير ما يراد من الكلام، وهـــو فهـــم السامع المعاني التي عناها المتكلم به دون كلفة على السامع، ولا إغـــلاق؛ كما يقولون: "يدخل للأُذُنِ بلا إِذنٍ".

وهذا اليسر يحصل من جانب الألفاظ وجانب المعاني؛ فأمَّـــا مـــن جانب الألفاظ فذلك بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات وفصاحة التراكيب، أي فصاحة الكلام، وانتظام مجموعها؛ بحيث يخفُّ حفظُها على الألسنة.

وأما من جانب المعاني فبوضوح انتزاعها من التراكيب، ووفرة مـــا تحتوي عليه التراكيب منها من مغازي الغرض المسوقة هي لـــه. وبتولـــد معانٍ من معانٍ أخر كلما كرر المتدبر تدبره في فهمها..... فصار معـــنى ﴿يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾: أنَّ القرآن سهلت دلالته لأجل انتفـــاع الـــذكر بذلك التيسير، فجعلت سرعة ترتب التذكر على سماع القرآن بمنزلة منفعة للذكر؛ لأنه يشيع ويروج بها، كما ينتفع طالب شيء إذا يســـرت لـــه وسائل تحصيله، وقربت له أباعدها... وفرَّعَ على هذا المعنى قوله: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾؛ والادِّكار هنا ادِّكار عن سماع مواعظ القرآن البالغة وفهـــم

---

(١) عزاه في الدر المنثور (١٤/ ٧٨) إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

معانيه والاهتداء به»[1].

وأمَّا تيسير رعايته فمن حيثُ إعانةُ من أراد العمل بأوامره والازدجار عن نواهيه.

وقال محمد بن كعب: هل من مترجر عن المعاصي؟[2]

وكان ابن عيينة يذهب إلى أنَّ النسيان الذي يستحقُّ صاحبه الذمَّ، ويضاف إليه الإثم به: هو الترك للعمل به، وأنَّ النسيان في لسان العرب يأتي بمعنى التَّركِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٤٤]؛ أي: تركوا. وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر:١٩] أي: تركوا طاعة الله فترك رحمتهم. قال: وليس مَن اشتهر بحفظ شيء من القرآن وتفلَّت منه بناسٍ إذا كان يحلُّ حلاله ويحرِّم حرامه.

وعن قتادة قال: هل من طالب علم أو خير فيعان عليه.[3] وبمثله عن مطر الوراق[4].

قال سفيان الثوري: سمعنا أنَّ قراءة القرآن أفضل الذكر إذا عُمِل به[5].

ولما كان الحفظ مصطلحًا أصيلاً على الرعاية ساغ أن يُطلق النسيانُ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٨٨-١٩٠) باختصار.

(٢) عزاه في الدر المنثور (١٤/ ٧٨) إلى ابن المنذر.

(٣) تفسير الطبري (٢٢/ ١٣١)، وانظر: الدر المنثور(١٤/ ٧٨).

(٤) ينظر: ابن جرير (٢٢/ ١٣٢)، وعزاه في الدر المنثور (١٤/ ٧٨) إليه وإلى ابن أبي الدنيا وابن المنذر.

(٥) التذكار في أفضل الأذكار (ص٥٥).

على التفريط في العمل، فقوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه:١٢٦] لما قال له: ﴿ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ [طه:١٢٥]؛ قال الله له: فعلتُ ذلك بك، فحشرتُك أعمى كما أتتك آياتي – وهي الحجج والأدلة والبيان الذي بينه في كتابه – فنسيتها يقول: فتركتها وأعرضت عنها و لم تؤمن بها، و لم تعمل[1].

وهناك علاقةٌ تبادلية بين هذه المستويات الثلاثة من تيسير الحفظِ، فتيسير استظهاره يُيسِّر فهمَ معانيه؛ لأنَّ الذي لا يتكلَّف في استحضاره بل يجري ذلك منه بيُسْرٍ يمكنه أن يضمَّ الـمُفصَّل إلى المجمَل، والمبـهَم إلى المفسَّر؛ فيحصُل له بذلك من الفهم والفقه ما لا يحصُل لِمن شقَّ عليه استحضاره، وثقُل عليه تذكُّرُه.

وأمَّا تأثير جودة الفهم في دقَّة الاستظهار ويُسر الاستحضارِ فظاهرةٌ، إذ إنَّ المحفوظَ عن فهمٍ أثبتُ من المحفوظِ دون فهم.

وتأثيرهما في حفظ الرِّعايةِ أنَّهما لازمانِ للتدبُّرِ الذي هو باب العبور إلى العمل والامتثال لأوامره، والازدجار عن نواهيه، مع كمال التصديق بأخباره.

ولما كان حافظُه على تلك الصورة حافظًا لحدود الله فإنه موعودٌ على لسان نبيِّه ﷺ بحِفظ الله له؛ ومن حفظ الله ﷻ لحافظ القرآن رعايةً أن يحفظه عليه درايةً وروايةً. وسيأتي مزيدُ بيان لهذا المعنى -إن شاء الله- في مبحثٍ مستقلٍّ.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢٠٢).

المبحث الخامس

ضمان تعاهد القرآن بنفي السآمة عن قارئه؛ فلا يَمَلُّ بترداده

من وجوه إعجاز القرآن أنَّ سامعه لا يمجُّه، وقارئه لا يَمَلُّه، فتطربُ له الأسماع، وتشغفُ به القلوب، فلا تزيده تلاوتُه إلا حلاوةً، ولا ترديدُه إلا محبةً، ولا يزال غضًّا طريًّا. وغيرُه من الكلام – ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغًا – يُملُّ مع الترديد، ويُعادَى إذا أعيد؛ لأنَّ إعادة الحديث على القلب أثقلُ من الحديد، وكتابنا بحمد الله يُستلذُّ به في الخلوات، ويُؤنسُ به في الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك؛ حتى أحدث أصحابها لها لحونًا وطرقًا؛ يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها[1].

ولقد صرَّف الله ﷻ في القرآن من ضروب الكلام ما يُجدِّدُ الذِّكرَ، ويُعمِل الفِكْرَ؛ فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه:١١٣].

فالقرآن الكريم في تحدُّثِه عن النفس الإنسانية حارب الملل وأقصاه عنها إقصاءً، وعمل على تجديد حياتهم بين الحين والحين؛ حتى إنه ليمكنها أن تستقبل في كل يومٍ ميلادًا جديدًا[2].

وفي صفةِ القرآن عن عليّ رضي الله عنه يرفعُه: «هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلَق على كثرة الردِّ ولا

---

(١) ينظر: الشفا (ص١٧٢)، ومعترك الأقران (١/ ٢٤٤).

(٢) ينظر: نظرات في القرآن (ص ١٢٦).

تنقضي عجائبُه»[١]. وقوله: (ولا يشبع منه العلماء)؛ أي: لا يحيط علمهم بكنهه فيقفوا عن طلبه وقوف من شبع عن مطعوم؛ فإنَّ الناظر فيه لا ينتهي إلى حدٍّ إلا وهو بعدُ طالبٌ لحقائقه، باحثٌ عن دقائقه. وقوله: (لا يخلق على كَثْرَة الردّ) يُبيِّنُ أنه غضٌّ جدِيدٌ أبدًا[٢]، لا يزول رونقه ولذَّة قراءته، واستماعه عن كثرة ترداده على ألسنة التالين وتكراره على أذان المستمعين؛ على خلاف ما عليه كلام المخلوقين[٣].

وعن ابن مسعود ﷺ: «إنَّ هذا القرآن، لا يختلف ولا يستشنُّ، ولا يتفه لكثرة الرد»[٤]. قوله: (ولا يستشنُّ ولا يَتْفَهُ)؛ التَّفهُ: من تفه الطَّعام: إِذا سنخ وتفه الطِّيب: إِذا ذهبت رَائِحَته بمرور الْأَزْمِنَة. والتشانُّ: الإخلاق من الشَّنِّ، وهو الجلد اليَابس البَالِي؛ فالمعنى: هو حُلْو طيب لا تذهب طلاوته، ولا يبلى رونقه وطراوته بترديد قراءته؛ كالشعر وغيره. ويجوز أَن يكون من تفه الثَّوْب إِذا بلَى. ولا يتشانُّ: تَأْكِيدًا لَهُ، وَيجوز أَن يكون من تفه الشَّيْء: إِذا قلَّ وحقر أَي هُوَ معظَّم فِي الْقُلُوب أبدًا. وَقيل: معنى التشان الامتزاج بالباطل من الشنانة وَهِي اللَّبن المذيق[٥].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: «إنَّ هذا القرآن مأدبةُ الله،

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (ح٢٩٠٦) كتاب ثواب القرآن؛ باب ما جاء في فضل القرآن، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيَّات وإسناده مجهول، وفي حديث الحارث مقال. وضعَّفه الألباني في المشكاة (ح٢١٣٨).

(٢) غريب الحديث لأبي عبيد (٤/ ٥٦).

(٣) قوت المغتذي على جامع الترمذي (٢/ ٧٢٩).

(٤) رواه أحمد في المسند (ح ٣٨٤٥)، وإسناده ضعيف لجهالة أحد رواته، وبقيَّة رجاله رجال الشيخين.

(٥) الفائق في غريب الحديث (١/ ١٥٢).

فتعلَّموا مأدبة الله ما استطعتم، إنَّ هذا القرآن حبل الله والنور المبين النافع، عصمةٌ لمن تمَّسك به، ونجاةٌ لمن تبعه، لا يعوجُّ فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات»[1].

ووصف الله ﷻ القرآن بأنَّه مثانٍ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ لأنَّه يُثنَّى في التلاوة؛ فلا يُمَلُّ ولا يتفهُ ولا يتشانُّ ولا يخلق على كثرة الردِّ[2]، ولأنَّه مكـرَّرُ الأغـراض؛ فتكـون مقاصده أرسخ في النفوس، وليسمعها مَن فاته سماعُ أمثالها من قبل. وفيه تنبيهٌ على ناحيةٍ من نواحي إعجازه؛ وهي عدم الملل من سماعه، فكلما تكرَّر غرضٌ من أغراضه زاده تكـرُّرُه قبولاً وحلاوةً في نفوس السامعين، فكأنَّه الوجه الحسن الذي قيل فيه:

يَزِيدُكَ وجهُـه حُسـنًا ❋ إذا مـا زدتَّـه نَظـرًا[3]

فتنوَّعَ أسلوبُ القرآن بين ذكر القصـص والأحكـام، والوعـد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وثُنِّيَتْ فيه أسمـاء الله وصفاته، وهذا من حكمته ﷻ، وقد عَلِمَ احتياجَ الخلق إلى معانيه المزكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وهي بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكمـا أنَّ الأشجار كلما بعد عهدها بسقي الماء تعرَّضت للتَّلفِ، وكلمـا تكـرر سقيها حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة= فكذلك القلب يحتاج دائمًا

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٣/ ٣٧١ برقم ١٨٣٢).

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري (٥/ ٣٠٠) والمحرَّر الوجيز (٤/ ٥٢٧).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٤/ ٦٨). والبيت لأبي نواسٍ من قصيدة مطلعها: دَعِ الرَّسْـم الذي دثرَا= يُقاسي الريح والمطرَا. يُنظر: ديوان أبي نواس (٢/ ٢٧-٢٩).

إلى تكرر معاني كلام الله ﷻ عليه، ولو تكرَّر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعًا، و لم تحصل النتيجة منه[١].

وقال الإمام الشاطبيُّ في وصف القرآن الكريم[٢]:

وخيرُ جليسٍ لا يُملُّ حديثُه * وتَردادُه يزدادُ فيه تجمُّلاً

قال السخاوي شارحًا: «كل قول مكرَّر مملولٌ إلا القرآن، فإنَّه كلما كُرِّر حلا، فهو خير جليسٍ... وكيف يُملُّ وهو أحسن الحديث؟!

قال بعض البلغاء: فضل القرآن على سائر الكلام معروف غيرُ مجهول، وظاهر غير خفيٍّ، يشهد بذلك عجزُ المتعاطين، ووهن المتكلفين، وتحير الكائدين، وهو المتلوُّ الذي لا يملُّ، والجديد الذي لا يخلق...»[٣].

وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لِمَ صار الشعر والخُطب يُملُّ ما أعيدَ منها، والقرآن لا يُملّ؟ فقال: لأنَّ القرآن حجة على أهل الدهر الثاني، كما هو حجة على أهل الدهر الأول، فكل طائفة تتلقاه غضًّا جديدًا، ولأنَّ كلَّ امرئ في نفسه متى أعاده وفكَّر فيه تلقَّى منه في كل مرة علومًا غضَّةً، وليس هذا كله في الشعر والخطب[٤].

وعن بشر بن السري؛ قال:«إنما الآية مثل التمرة، كلما مضغتها استخرجت حلاوتها»[٥].

يقول ابن عثيمين – في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص٧٢٣).

(٢) حرز الأماني ووجه التهاني؛ البيت الحادي عشر.

(٣) فتح الوصيد (١/ ٥٧-٥٨).

(٤) المحرر الوجيز (١/ ٣٦).

(٥) البرهان في علوم القرآن ١/ ١٤٧.

[الطارق:١٤] :«أي ما هو باللعب والعبث واللغو، بل هو حقٌّ، كلماته كلُّها حقٌّ، أخباره صدق، وأحكامه عدل، وتلاوته أجر، لو تلاه الإنسان كل أوانه لم يملَّ منه، وإذا تلاه بتدبر وتفكر فتح الله عليه من المعاني ما لم يكن عنده من قبل، وهذا شيءٌ مشاهد: اقرأ القرآن وتَدبَّرْه، كلما قرأتَه وتدبَّرْتَه حصل لك من معانيه ما لم يكن يحصل لك من قبل، كل هذا لأنه فصلٌ وليس بالهزل، لكن الكلام اللغو من كلام الناس كلما كرَّرتَه مججتَه وكرهتَه ومللتَه، أما كتاب الله فلا»[1].

وهذه العذوبة الباعثةُ على الاستمتاع بترديده إنَّما حصلت من طريقين: الأوَّل من طريق بلاغته وحسن نظمه (الإعجاز البلاغيّ)، والثاني من تأثيره في النُّفوس (الإعجاز التأثيريّ).

وفيما يأتي نتناول كلَّ طريقٍ منهما في مطلبٍ مستقلٍّ بإذن الله.

(١) تفسير القرآن الكريم: جزء عم (ص١١٤).

المطلب الأوَّل

نفي السآمة عن قارئ القرآن من طريق نظم القرآن وإعجازه البيانيّ والبلاغي

فأمَّا الطريق الأوَّل؛ فإنَّ نظم القرآن وبلاغتَه وبيانَه عواملُ مهمةٌ في التلذُّذ بتكريره وترديده وكثرة تلاوته واستماعه وحفظه وتعاهده. وآيةُ ذلك أنَّك لو وقفتَ على فقرة من المكتوب أو المسموع، فوجدتَّها خاليةً من مُقوِّمات البلاغة والبيانِ، وهي فوق ذلك وحشيَّةُ الألفاظ، وعرة التراكيب= يكونُ من المشقَّةِ على نفسكَ أن تَحملَها على إعادة قراءتها أو سماعها، فإذا طُلِبَ منكَ أن تستظهرها فلربَّما كان نقلُ الجبال أهونَ من بعض ذلك، فإذا أرغمتَها عليه بوطأة الترهيبِ، أو حَدَوْتَها بمُنيةِ الترغيب، فساعدتكَ مرَّةً بحافظةٍ مُواتيةٍ وذاكرة حديدةٍ؛ فلا شكَّ أنَّها منقطعةٌ منكَ عن قريب، لا يدوم لها عهدٌ، ولا يبقى لها جهد. فإن عُهِدَ بها إلى أديبٍ مِدرَهٌ ليُرقِّيَها بمصاعد الطروس في زينة العروس بديعيةً متآلفة الأطرافِ؛ فلا عجبَ أن يُقبَل عليها ويُعتنَى بها درسًا وحفظًا. فإذا سُبِكتْ – على جودها – في قالبِ موسيقيٍّ يشنِّف الآذانَ ويُطربُ الجنان= فقد طرقتْ للبقاء طريقها، لا تُملُّ على كثرة الردِّ، ولا تُنسَى ببُعد العهد.

وإنَّكَ إذا استصحبتَ حُكمكَ هذا، وأتيتَ تُجريه على أفصح الكلام وأبلغه وأَبْينه وأَعْذبه؛ فلن تتردَّد في الحُكم لهُ، ولن تتوقَّف في القول بأنَّ مثلَه قد ضُمِّنَ في أسلوبه ما يجعله جاريًا على الألسنِ بالسهولةِ والعذوبةِ وبديع الرَّصفِ، يزداد بترداده تجمُّلاً، ويرنو إليه تحمُّلاً.

قال ابن عطية: «يُسِّرَ بما فيه من حسن النَّظم، وشرف المعاني، فَلَه

لَوْطَةٌ بالقلوب، وامتزاج بالعقول السلمية»[1].

وقال الباقلاني: «فالقرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه: من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع، وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول، وتصوره تصور المشاهد، وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف، مما لا ينحصر حسناً وبهجة وسناء ورفعة. وإذا علا الكلام في نفسه؛ كان له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس، ما يذهل ويبهج، ويقلق ويؤنس، ويطمع ويؤيس، ويضحك ويبكي، ويحزن ويفرح، ويسكن ويزعج، ويشجي ويطرب، ويهز الأعطاف، ويستميل نحوه الأسماع، ويورث الأريحية والعزة، وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجودًا، ويرمي السامع من وراء رأيه مرمى بعيدًا. وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة. وبحسب ما يترتب في نظمه، ويتنزل في موقعه، ويجري على سمت مطلعه ومقطعه= يكون عجيب تأثيراته، وبديع مقتضياته»[2].

وقال الرافعيُّ: «ومما انفرد به به القرآنُ، وباينَ سائر الكلام أنَّه لا يخلق على كثرة الردِّ وطول التكرار، ولا تُملُّ منه الإعادةُ، وكلما أخذت فيه على وجهه الصحيح؛ فلم تُخِلَّ بإدائه = رأيتَه غضًّا طريًّا وجديدًا مونقًا، وصادفتَ من نفسكَ له نشاطًا مستأنفًا، وحسًّا موفورًا. وهذا أمرٌ يستوي في أصله العالم الذي يتذوَّقُ الحروف ويستمري تركيبها، ويُمعن في لذَّة نفسه من ذلك، والجاهل الذي يقرأ ولا يثبت معه من الكلام إلا

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٢١٥).

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني (ص ١٧٣).

أصوات الحروف، وإلا ما يميزه من أجراسها على مقدار ما يكون من صفاء حسّه ورقَّة نفسه، وهو - لعمر الله – أمرٌ يوسع فكر العاقل ويملأ صدر المفكر. ولا نرى جهة تعليله ولا نصحِّحُ منه تفسيرًا إلا ما قدمنا من إعجاز النَّظم بخصائصه الموسيقية، وتساوُق هذه الحروف على أصول مضبوطةٍ من بلاغة النغم؛ بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمدّ والغُنَّة ونحوها، ثمَّ اختلاف ذلك في الآيات بسطًا وإيجازًا، وابتداءً وردًّا، وإفرادًا وتكريرًا»[(١)].

وقد سُمِّيَ قرآنًا؛ لأنه نُظِم على أسلوبٍ تسهل تلاوته، لوحظ هنا المعنى الاشتقاقي قبل الغلبة، وهو ما تفيده مادة (قرأ) من يسر تلاوته، وما ذلك إلا لفصاحة تأليفه وتناسب حروفه[(٢)].

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص ٢١١).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣١٤).

المطلب الثاني
نفي السآمة عن قارئ القرآن من طريق الإعجاز التأثيري

وأمَّا الطريق الثاني لكَون القرآن غيرَ مملول، فهو تأثيرُه في النفوسِ، وهو ما اصطلح عليه المتأخرون بالإعجاز التأثيريِّ.

والإشارة إلى هذا النوع من الإعجاز حاضرةٌ في كلام المتقدِّمين ممن تكلَّموا في إعجاز القرآن الكريم؛ يقول الخطَّابي: «في إعجاز القرآن وجهٌ آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذُّ من آحادهم، وذلك صنيعُه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى؛ ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظَّها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيبُ والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدوٍّ للرسول ﷺ من رجال العرب وفُتَّاكِها؛ أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاةً، وكفرهم إيمانًا»[1].

وعدَّ القاضي عياض[2] من أوجه إعجاز القرآن الروعةَ التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته؛ لقوة

(١) إعجاز القرآن للخطابي (ص٧٠).

(٢) ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (ص١٦٩-١٧١).

حاله وإدامة خطره، فالمؤمن لا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذابًا وتكسبه هشاشةً؛ لميل قلبه إليه، وتصديقه به؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٢٣]، وقال ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٢١]. وهذا دالٌّ على أنَّ هذا التأثّر يمكن أن يعتريَ مَن لا يفهم معانيه، ولا يعلم تفسيره، وقد رويَ عن نصراني أنه مر بقارئ فوقف يبكي، فقيل له: مم بكيت؟ قال للشجا والنظم.

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة؛ عن جبير بن مطعم ﷺ قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۣيۡطِرُونَ ﴾ [الطور:٣٥ـــ٣٧] كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي»[1].

ويرى محمد فريد وجدي أنَّ البلاغة ليست الجهة الوحيدة لإعجاز القرآن، بل؛ وليست أكثرَ جهات إعجازه سلطانًا على النفس؛ فإنَّ للبلاغة على الشعور الإنساني تسلُّطًا محدودًا لا يتعدَّى حدَّ الإعجاب بالكلام والإقبال عليه، ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال في الضعف شيئًا

(١) أخرجه البخاري (ح٤٨٥٤) كتاب التفسير؛ باب: سورة والطور؛ دون قوله: «وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي»، وأخرجه في كتاب المغازي (ح٤٠٢٣) ولفظه: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي»، كما أخرجه مسلم (ح٤٦٣) كتاب الصلاة؛ باب: القراءة في الصبح.

فشيئًا بتكرار سماعه؛ حتى تستأنس النفس به، فلا يعود يُحدِث فيها ما كان يحدثه في مبدإ وُرودِه عليها. وليس هذا شأن القرآن؛ فإنه قد ثبت أنَّ تكرار تلاوته تزيده تأثيرًا، ولكنه تسلَّط على النفس والمدارك، فوجب أن نبحث عن وجه إعجازه في مجال آخر يكفي لتعليل سلطان القرآن على عقول الآخذين به.

والعلة في ذلك أنَّ القرآنَ رُوحٌ من أمر الله تعالى؛ يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى:٥٢]، فهو يؤثر تأثير الروح في الأجساد، فيحركها ويَتسلَّط على أهوائها، وأما تأثير الكلام في الشعور فلا يتعدى سلطانه حد إطرابها والحصول على إعجابها[١].

وقد سمَّى الله القرآن روحًا؛ لأنَّ فيه حياةً من موت الجهل[٢]. وما عجزُ الإنس والجنِّ عن الإتيان بمثله إلا كعجزهم مجتمعينَ عن إحياء الموتى، بنفخ الرُّوح فيهم.

إنَّ للقرآن فوق البلاغة والعذوبة والحكمة والبيان رُوحانية يدركُها مَن لا حظَّ له في فهم الكلام وتقدير الحكمة وتمييزِ البلاغة؛ ألا ترى أنَّ الطفل والعاميَّ يعتريهما تهيُّبٌ عند تلاوته ولو بغير صوت حسن؛ حتى إنهما ليكادان يفرِّقان بين ما هو قرآنٌ، وما ليس بقرآن فيما لو أراد المتحدِّثُ أن يُلبِّس عليهما؟!

كذلك تظهر هذه الروحانية جليًّا عندما تجيءُ آيةٌ على سبيل الاستشهاد والاقتباس في الكلام، فإنَّك ترى تلك الآية تتجلّى من بين السطور التراكيب كالشمس المنيرة؛ وإن كان الكلام في تلك الصفحة ذا

(١) ينظر: دائرة معارف القرن العشرين (٧/ ٦٧٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٥٠٩).

حظٍّ من البيان، وجمال الأسلوب وجزالة الألفاظ[(١)].

وليستْ روحانية القرآن السبب الوحيد لهذا التأثيرِ؛ بل إنَّ نورانيته كذلك، والقرآن موصوفٌ في القرآن بأنَّه نورٌ في مواضع عدَّة، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء: ١٧٤]، وقوله تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ [المائدة: ١٥]، وقد اقترنَ وصفه بالروح بوصفِه بالنور في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى:٥٢]. فالنور هو نور اليقين والهداية والمعرفة، والإنسان مجبول على الخوف من الظلام والاستيحاش منه، وعلى حبِّ النور والاستئناس به، فكلما حصل له من ذلك شيءٌ تأثَّر به وانجذب إليه، وابتغى إلى الاستزادة منه سُبلاً.

وقد فَطَر الله ﷻ الإنسانَ على فطرةٍ مستقيمةٍ، انحرفُوا عنها باجتيال الشياطين لهم، فمهما يأتهم من هُدَىً فإنَّه يردُّهم إلى الفطرة بمقدار حصوله، والطمأنينةُ والأمن النفسيُّ لا يتحقَّق إلا بالرجوع إلى الفِطرةِ، فالقارئ للقرآن يفيء إلى ظلال الفطرة بهُدى القرآن.

والإنسان – كذلك – مجبولٌ على حبِّ المعرفة، فكلما حصل له شيءٌ منها من جانب نورانية القرآنِ تلقَّفها وجدانُه طامعًا في المزيدِ ومادًّا عينيه إلى ما مُتِّعَ به؛ يودُّ ألا ينقطع مداده، وألا ينحبسَ فيضُ ديمه.

ويحصُل تأثير القرآن – كذلك – من جهة عزَّته؛ يقول تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴾ [فصلت:٤١]، فهو كالعزيزِ الذي تحولُ مهابته دون

(١) ينظر: دائرة معارف القرن العشرين (٧/ ٦٧٨).

إحاطة النَّظر به، ويتمنَّعُ فهمُه على المنصرف عنه، فاقتضت هذه الصفةُ أن ينصرف إليه الناظر فيه بكلِّيَّته، وهو مع ذلك لا يطمعُ في أن يأتي على الغايةِ من حاجة نفسه منه، فيُوطِّنها على ضرورة العَوْدِ.

فأنت ترى أنَّ تأثيرَ القرآنِ حاصِلٌ من عدَّة جهات: من جهة بيانه وروحانيته ونورانيته وهُداه وعزَّته، فكان في هذا ضمانٌ لإقبال القارئ والسامع عليه بتشوُّفٍ وتشوُّقٍ، لا يعتريه مللٌ، ولا تأخذُه منه سآمةٌ.

المبحث السادس

ضمان تعاهد القرآن الكريم من خلال تكفُّل الله ﷻ بحفظ من يحفظُه

المطلب الأوَّل: حفظ الله ﷻ لأوليائه

في وصية النبي ﷺ لابن عبَّاس يقول ﷺ: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك»[١]، ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكفى به حاديًا للحَفظَةِ.

ومَن حَفِظَ حدود الله، وراعى حقوقه؛ حفظه الله، فإنَّ الجزاء من جنس العمل[٢]. وإنَّ أفضل ما يُحفظُ فيه الأولياءُ الحافظون وأشرفه وأعلاه حفظُهم عمَّا يضرُّ إيمانهم وصيانة عقودهم في التوحيد عن اكتفائهم بالتقليد، وتحقيق العرفان في أسرارهم بجميل التأييد، وليس كل الحفظ أن يحفظ عبدًا بين البلاء عن البلاء؛ وإنما الحفظ أن يحفظ قلبًا على خلوص المعرفة من الأهواء؛ حتى لا يزل عن الطريقة المثلى، ولا يحيد إلي البدع والهوى. وقيل: من حفظ لله جوارحه، حفظ الله عليه قلبه، ومن حفظ لله حقَّه حفظ الله عليه حظه[٣]. فأهمُّ ثمرات حفظ حدود الله ﷻ أن يحفظ اللهُ ﷻ على المرء دينه، ويعصمه من الزلل والتردِّي في هُوى المعاصي ونتنها وحمأتها، وذلك أنَّ التقوى تفتح للعبد نور البصيرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند عن ابن عبَّاس (ح ٢٧٦٣)، والترمذي في (ح ٢٥١٦)؛ كتاب صفة القيامة والرقائق والورع؛ باب (٥٩)، وقال: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في المشكاة (ح ٥٣٠٢).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص ٤٣٦).

(٣) الكاشف عن حقائق السنن (٦/ ١٧٩٣).

وقال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤]؛ قال ابن عبّاس والضحَّاك بن مزاحم في معناه: يحول بين المؤمن وبين معصيته(١).

وفي قصة حادث الإفك تقول عائشة رضي الله عنها: «وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: يا زينب؛ ما علمتِ، ما رأيتِ؟ فقالت: يا رسول الله؛ أحمي سمعي وبصري، والله ما علمتُ عليها إلا خيرًا. قالت: وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع»(٢). كيف لا وقد وصفتها السيدة عائشة في حديثٍ آخر؛ قالت: «ولم أرَ امرأةً قطُّ خيرًا في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدَّقُ به، وتقرَّب به إلى الله تعالى»(٣).

فإذا كان العبد محفوظًا مُصانًا عن مرذول المعاصي ومستهجَن الذنوب؛ فقد ضُمِنَ له – بحول الله – ألا يُرزأ في علمه، وخصوصًا حفظ القرآن وتعاهُده واستذكاره؛ عن الضحاك بن مزاحم قال: ما من أحد تعلَّم القرآن ثم نسيه إلا بذنب يحدثه؛ لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠]، وإن نسيان القرآن من أعظم المصائب(٤).

وعن ابن مسعود ﷺ قال: «إني لأحسب الرجل ينسى العلم

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ١٠٩-١١٠).

(٢) البخاري (ح ٤١٤١) كتاب المغازي؛ باب: حديث الإفك، ومسلم (ح٢٧٧٠)؛ كتاب التوبة؛ باب: في حديث الإفك.

(٣) رواه مسلم (ح ٢٤٤٢) كتاب فضائل الصحابة ﷺ؛ باب: فضل عائشة رضي الله عنها.

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد (١/ ٣٧٥).

بالخطيئة يعملها»[١].

وقال عمر لكعب: ما يذهب العلم من قلوب العلماء بعد أن حفظوه ووعوه؟ فقال يذهبه الطمع وتَطلُّب الحاجات إلى الناس[٢].

ومن حِفظِ الله للحافظِ الـمُراعي أن يحفظه في عقله وبدنه وصحَّته، ومن حفظَ اللهَ في صباه وقوته، حفظه اللهُ في حال كبره وضعف قوته، ومتَّعه بسمعه وبصره وحوله وقوته وعقله. قال القاضي ابن بكران الشاميّ: قلتُ للقاضي أبي الطيب الطبريِّ شيخنا وقد عُمِّر: لقد مُتِّعتَ بجوارحك أيها الشيخ! قال: ولم؟ وما عصيت الله بواحدة منها قط. أو كما قال[٣]. وقد توفِّي أبو الطيِّب الطبريّ عن مائة وسنتين، لم يختلَّ عقلُه، ولم يتغيَّر فهمه، يفتي مع الفقهاء، ويستدرك عليهم الخطأ، ويقضي، ويشهد، ويحضر المواكب إلى أن مات[٤].

ومن ثمرات الحفظ سعة الرزق وتنفيس الكربات وشرح الصدور؛ قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

فمَن كان بهذه الصِّفة من الحفظ والتحفُّظ ضُمن له – بعون الله وتوفيقه أن يُوفَّق إلى الطاعة، ويُجنَّب الزَّللَ والنُّكوصَ. وعلى رأس الطاعات تعهُّد كتاب ربِّ البريَّات؛ نسأل الله التوفيق والسلامة والثبات.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٣٥٢-٣٥٣، ٢/ ١٣). وانظر الجامع للخطيب (١٨٥٠)

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٦٧٠)

(٤) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٦٧٠)

المطلب الثاني: سنَّة الله ﷻ في حفظة القرآن

من سُنَن الله ﷻ في خلقه أن يَجدَ المعمَّرُ وهنًا في قوَّته، وضعفًا في قدراته العقليةِ، فطَبَعيٌّ أن ينكِرَ من نفسه ويُنكَر منه بعضُ ما كان يُمدح به من رجاحة العقلِ، وحِدَّة الذاكرة، وجودة التفكير.. ونحو ذلك. يقول تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النحل: ٧٠].

إلا أنَّ العلماء عمومًا، وقرَّاء القرآن خصوصًا؛ لا يجري عليهم هذا القانون بمثل ما يجري على غيرهم؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مَن قرأ القرآن لم يُردَّ إلى أرذل العُمر، وذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [التين: ٥-٦] قال: إلا الذين قرؤوا القرآن»[(١)].

وعن عكرمة قال: «مَن قرأ القرآن لم يُردَّ إلى أرذل العمر»[(٢)]. وعن الشَّعْبِيِّ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يَخْرَفْ»[(٣)]. وعن طاوس قال: «إن العالم لا يخرف»[(٤)]. وعن عبد الملك بن عمير قال: «كان يقال: إنَّ أبقى الناس عقولاً قرأة القرآن»[(٥)]. وعن محمد بن كعب قال: «مَن قرأ القرآن

(١) أخرجه الحاكم وصحَّحه، والبيهقي في الشعب وصححه الألباني في صحيح الترغيب (ح١٤٣٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٦٨ برقم ٣٠٥٧٨).

(٣) العمر والشيب لابن أبي الدنيا (ص٧٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (ح٣٦٨٤٥) (١٤/ ٥٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ١٠).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٦٨ برقم ٣٠٥٧٦)، والعمر والشيب لابن أبي الدنيا (ص ٧٥).

متع بعقله وإن بلغ مائتي سنة»[١].

قال الشنقيطي: «وقال بعض العلماء: إنَّ العلماء العاملين لا ينالهم هذا الخَرَفُ، وضياع العلم والعقل من شدة الكبر. ويُستروحُ لهذا المعنى من بعض التفسيرات في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [التين: ٥-٦]»[٢].

وقد يُعترضُ على هذه الآثار بأنَّ الواقعَ يقضي بوجودِ مَنْ أصابه الخَرَفُ من القرَّاء والعلماء، وإلى هذا أشار صاحب بيان المعاني؛ فقال: «وما جاء عن عكرمة أن من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر= ليس على إطلاقه؛ لأنَّا شاهدنا علماء وقرَّاء فلجوا وخرفوا، ورأينا على العكس مَن يُعمَّر ويموت بكمال عقله، بل وقواه وجوارحه، وإنَّ شيخنا الشيخ حسين الأزهري مفتي الفرات ومُدرِّسها عاش مائة وسبعًا وعشرين سنة، ولم يفقد من قواه شيئًا، وخاصة ذاكرته، تغمده الله برحمته التي يختص بها من يشاء ولم نر أورع منه»[٣].

ويُمكن توجيهُ ذلك بأنَّ نسبة حدوثه للعلماء والقرَّاء لا تبلغ نسبة حدوثه لغيرهم من البشر؛ والعبرة بالغالب الأعمِّ، كما يمكن توجيهه بما قاله ابن حجر الهيتميّ بأنَّ المُراد بكَوْنِ العالم لا يخرف: أنَّه لا يصل إلى خرف العوام من عود الكبير كالطفل في سائر أحواله؛ بل أقبح منه. فهذا هو الذي تُصان عنه العلماء[٤].

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ١٣٣).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٤١٠).

(٣) بيان المعاني (٤/ ٢٣٨).

(٤) ينظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر (ص٢٤).

وهذا كلُّه في حقِّ القارئ العامل بالقرآنِ القائم به آناء الليل يتلو آياته ويتدبَّرها، والقائم بحدوده آناء النهار، ويشهد لذلك قول النبي ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد»[1]، وقيام الليل مرتبط بترتيل القرآنِ وتدبُّره، فهما صنوانِ لا ينفكّان، فلمَّا كان قيام الليل مطردةً للداء عن الجسد كان أولى الأدواء التي يؤثِّر فيها قيام الليل داء الخَرَف والهذيان الـمُفضي إلى نسيان القرآنِ؛ إذ الجزاء من جنس العمل.

وعن سفيان قال: مَن أدام النظر في المصحف مُتِّع ببصره. وبنحوه عن معروف[2].

فمُتعاهدُ القرآنِ روايةً ودرايةً ورعايةً أولى الناس بهذا الحفظِ الربَّانيِّ، قضتْ بذلك الحِكمةُ، وجرت بذلك العادةُ.

وقد دلَّ كثيرٌ من الأبحاث الحديثة في مرض الخَرَف المعروف بالألزهايمر على أنَّ النشاطات العقلية التي يمارسها الإنسانُ تؤخِّر – بإذن الله وتقديره – الإصابةَ بهذا المرض أو تمنعُها، وتقلِّل من حدَّة أعراضه. وعند النَّظر إلى تلك النشاطات العقلية والفكرية التي يُوصي بها الاطبَّاء والخبراء في هذا المجال نجد أنَّ قارئ القرآن المتعاهدَه والمتدبِّرَه يمارسها أكثر من غيره، لذا فليس مُستغربًا أن تجري سنَّة الله ﷻ بأنّ العلماء وقرَّاء القرآن لا يخرفون.

(١) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (ح٤٠٧٩).

(٢) طبقات الحنابلة (١/ ٣٨٤).

وفي كتاب «مائة وسيلة بسيطة لمنع الألزهايمر والخرف»[1] تُورد مؤلفته كثيرًا من الوصايا محورها الاهتمام بالنشاطات التعلُّمية، وتؤكِّد بالأبحاث الجادَّة الرصينة فائدة تلك النشاطات في السيطرة على الخَرَف والألزهايمر وأعراضه.

تقول: «لنفترض وجود مُسنَّيْنِ لديهما تغيرات دماغية متشابهة قد تؤدي إلى الإصابة بمرض الألزهايمر؛ ثمة رهانٌ جيد على أنَّ الذي بقي منهما على مقاعد الدراسة فترة أطول= أقلُّ عُرضة من الآخَر لمعاناة أعراض الألزهايمر، فقد أظهرت دراسة بعد أخرى أنَّه كلما زادت سنوات التعليم النظاميّ تحسَّنت قدرة الدماغ على مقاومة مرض الألزهايمر. من أهم الأبحاث الجديرة بالاهتمام دراسة أجراها الطبيب جون سي مورس الباحث المشهور في مرض الألزهايمر من كلية الطب التابعة لجامعة واشنطن، حيث أجرى اختبارات لأشخاص مشاركين في الدراسة بحثًا عن أعراض الألزهايمر، وقارنها بعدد سنوات دراستهم، فكانت منافع التعليم مذهلة؛ إذ قلَّ ضعف الذاكرة بزيادة سنوات التعليم. ونال أعلى علامات الاختبارات المعرفية أولئك الذين أمضوا أكثر من ست عشرة سنة في الدراسة، وتلاهم الذين تراوحت مدة دراستهم بين ثلاث عشرة سنة وست عشرة سنة، وجاء في المرتبة الثالثة الذين أتموا المدرسة الثانوية أو تسربوا منها.

تتغلَّب الدراسة حتى على الجينات التي تزيد من استعداد حامليها للإصابة بالألزهايمر، حيث تظهر دراسات ألمانية أن مداومة التعلُّم يؤخر

(١) تأليف جين كارتر، وترجمة غسَّان غصن، ومؤلفة الكتاب صاحبة المركز الأول بين مؤلفي الكتب الأكثر مبيعًا بتصنيف نيويورك تايمز.

بداية المرض لدى ذوي الاستعداد الوراثي له، وحتى بين توأمين يمتلكان جينات مماثلة تكون احتمالات ظهور أعراض الألزهايمر أدنى لدى التوأم ذي التعليم الأعلى مما هي عليه لدى التوأم الآخر.

هناك نظريات متعددة حول الأسباب التي تجعل التعليم العالي يزيد مقاومة الأدمغة للتراجع المعرفي ومرض الألزهايمر؛ فالدراسة الجامعية تشجع على التركيز والتعمق والقراءة وعلى نشاطات ذهنية أخرى قد تحفز خلايا الدماغ على إقامة روابط أفضل، أو ربما يدعم التعليم العالي إيجاد سبل أفضل تعوض تراجع الذاكرة مع التقدم في العمر. والخلاصة أن الحائزين على تعليم عالٍ يتصدون لضرر الدماغ بشكل أفضل، ولزمن أطول؛ الأمر الذي يخفف من حدة مرض الألزهايمر، ويؤخر ظهور أعراضه»[1].

وقد وُجد أنَّ المحافظةَ على النشاط العقلي من أجدى الأمور لإبعاد شبح الخَرَف، وقد درس (هول) النشاطات التي يمارسها خمسمائة مُسنٍّ من الرجال والنساء في أوقات فراغهم، عندما بدأت الدراسة في عام ١٩٨٣ لم يكن أيٌّ منهم مصابًا بالخرف في أعمارهم التي تراوحت بين الخامسة والسبعين والخامسة والثمانين؛ لكن مع مرور الوقت أصيب نحو ٢٠% منهم بالخرف، ووجد أنَّ الذين قاموا بأكثر النشاطات تحفيزًا للعقل مثل القراءة والكتابة وحلِّ أحاجي الكلمات المتقاطعة، أو المشاركة في حلقات نقاشية كانوا أقل عرضة لمعاناة فقدان الذاكرة السريع المرتبط بالخرف، وأخرت ممارسة نشاط ذهنيٍّ واحد كل يوم بداية فقدان الذاكرة والخرف بمقدار شهرين. وقد توصَّل (هول) إلى أنَّ زيادة النشاط العقليّ

(١) مائة وسيلة بسيطة لمنع الألزهايمر والخرف (ص١٠٥-١٠٦) بتصُّرف.

أفضل وقايةٍ ضدَّ الخَرَف، وأنَّ إهمال ذلك يُعطِّل أنماطًا معينة من الأداء المعرفي، وهو ما يثبت القول بأنَّ عدم استعمال المخ قد يؤدي إلى خسرانه[١].

كما أثبتت الدراسات أنَّ الأشخاص الذين يمارسون التأمُّل بانتظام يميلون إلى المحافظة على كمية أكبر من المادة السنجابية في أدمغتهم، ويعانون قدرًا أقل من التردِّي الإدراكي المعرفي مع زيادة التقدُّم في العُمُر[٢].

(١) ينظر: السابق (ص ١٨١-١٨٢).

(٢) ينظر: السابق (ص ١٧٣-١٧٥).

المبحث السابع
بيان تفرُّد القرآن الكريم بتحقُّق ضمانات التعاهُد له

يقتضي المنهج العلميُّ أن نعقد هذا المبحث، وإلَّا فإننا في غنيةٍ عن توضيح الواضحِ، وإثبات المُثبَتِ. فالواقع شاهدٌ – بما لا يدع مجالاً لمشكِّكٍ – أن القرآن الكريم ينفردُ بكونه الكتابَ الوحيدَ الذي يستظهره مَن يروم ذلك ثم يبقى على تعاهُده متى صحَّ منه العزمُ، يستوي في ذلك العالم والأُمِّي، وطالب العلم، والعاميّ، والشيخ والشاب والطفل، والرجل والمرأة، والعربيّ والأعجميّ. وأمَّا غيره من الكتب فإن تمكَّن منها فردٌ استعصتْ على آلافٍ، وإن أخذها في سَنَةٍ عزبتْ عنه بعد أيَّامٍ من هَجرِه لها، وانتقاله لغيرها.

ولعلَّنا لاحظنا مرارًا أنَّ أجود الشعراء قريحةً، وأحدَّهم ذهنًا؛ لا يستقيم له أن يُلقيَ قصيدةً طويلةً من نظمِه من دون أن تكونَ مكتوبةً أمامه في ورقةٍ، ويتعلَّل بأنَّه لا يستطيعُ أن يستظهرَ شعره! فماذا إذا طُلِبَ منه إلقاءُ كلِّ ما جادتْ قريحتُه بنظمه؟! وماذا إن كان أدبُه نثرًا؟ ومعلومٌ أنَّ النَّثرَ أصعبُ في الاستظهار من الشِّعر. ثمَّ ماذا إن كان الأدبُ لغيره وليس له؟!

والسبب في انفراد القرآن بهذه الخاصيَّة أنَّ الأمور الأربعة التي أشرنا إليها لم تجتمع إلا له، نعم؛ ربَّما تحقَّق بعضها لبعض الكتب، وخصوصًا ما أسميناه بالعوامل الخارجية؛ فأمَّا قبول المحلِّ ووجود الدَّافع فليس من الصَّعب أن يجتمعا، بل هما يجتمعان لطالبٍ يدرس بعض الموادِّ الدراسية ليمتحن فيها بغرض تحصيل شهادة دراسيَّة، فدافع النجاح والتفوّق موجودٌ، ومنهجية الأخذ والتحمُّل تصحُّ للكثير من المعلِّمين وطلّابهم، ولكن يبقى أنَّ الدَّافع ينتهي إلى غايةٍ قريبةٍ، وهي موعد الامتحان، ثم إذا

فاتَشتَه عن معلوماته بعدُ؛ فلن تجد لديه إلا أقلَّ القليل. ثم إذا نظرتَ للعامِلَين الداخليين فلن يتحقَّقا لكتاب كما تحقَّقا للقرآن، ولو عهدتَّ إلى متذوِّق ليختار لك من أجود الشعر وأعذبه، ثمَّ عكفتَ عليه فاستظهرتَه، فهل إلى دفع السآمةِ بتكراره سبيلٌ؟! وهل اختيارُكَ هذا مما يستقيم أن تجمع عليه أذواق النَّاس بالقدر الذي يجتمعون به على القرآن؟

فإذا سلَّمنا بذلك فقد بقي لنا فضلٌ وزيادةٌ من حفظِ الله ﷻ للقرآن وتيسيره للذِّكر ووعده بحفظ حَفَظَةِ القرآن، وهذا كلُّه غير كائنٍ لكلامٍ غير القرآن.

وإنَّ أقربَ ما يُسامَى به القرآنُ الكتبُ السماويةُ؛ فإذا ثبت أنَّها غير محفوظةٍ، ولا جاريةٍ على سَنَنِ التعاهُد بما هو حاصلٌ للقرآن؛ فإنَّ انتفاءَ حصول ذلك لغيرها أَوْلى، فقد خُصَّ القرآن بهذه الخصيصة؛ بخلاف غيره من الكتب المتقدِّمة، فإنه ﷻ لم يتكفَّل بحفظها؛ بل استحفظها الأنبياءَ فحفظوها وحفظها مَن اتَّبعهم بإحسان من الربَّانيينَ والأحبار: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾[المائدة: ٤٤]، ثم خلف من بعدهم خلفٌ ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فحرَّفوا وبدَّلوا وكتموا ونسوا حظًّا مما ذكِّروا به، قال تعالى في اليهود: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال في النصارى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا

ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٤]، وقال في أهل الكتاب عمومًا:﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[آل عمران: ١٨٧].

وعن أبي الحسن بن المنتاب، قال: «كنت عند إسماعيل [ابن حمَّاد الأزديّ] يومًا فسئل: لِـمَ جاز التّبديل على أهل التّوراة ولم يجز على أهل القرآن؟ فقال: قال في أهل التّوراة: (بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ) فوكل الحفظ إليهم، وقال في القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فتعهّد الله بحفظِه فلم يجز التّبديل على أهل القرآن. قال: فذكرتُ ذلك للمُحاملي، فقال: ما سمعتُ كلامًا أحسن من هذا»[١].

ويشهد الواقعُ لتفرُّد القرآن بذلك، فنحن لو سلَّمنا – جدلاً – أنَّ بعضَ علماء أهل الكتاب يستظهرون التوراة والإنجيل؛ ويستحضرون نصوصهما متى احتاجوا إلى ذلك؛ فإنَّ نسبتهم بالقياس إلى غيرهم من العلماء لا تُضاهَى بنسبة حفظةِ القرآن من علماء المسلمين، والكلام نفسه يقال في نسبةِ حفظة التوراة أو الإنجيل من عوامِّ اليهود والنَّصارى؛ قياسًا إلى نسبةِ حَفَظَةِ القرآن من عوامِّ المسلمينِ. والتعاهُد فرعٌ عن الاستظهار، وما قيل في الثاني يقال في الأوَّل.

وما أحدث أهل الكتاب هذه الألحان والترانيم عند قراءة كتبهم إلا نفيًا للسآمةِ عن قارئيها وسامعيها[٢]، فإذا كان الأمر كذلك؛ فأنَّى يكونُ مجالٌ لمقارنتها بالقرآن الكريمِ في تفرُّدِه بإعجاز تعاهُدِه؟! والله تعالى أعلم.

---

(١) ترتيب المدارك (٤/ ٢٨٣).

(٢) ينظر: الشفا (ص١٧٢)، ومعترك الأقران (١/ ٢٤٤).

الخاتمة

أوَّلاً: أهمّ النتائج

١- تكفُّل الله ﷻ بحفظ القرآن الكريم من التحريف والتبديل يقتضي حفظه في الصدور والسطور، وحفظه في الصُّدور يقتضي تيسير تعاهُده.

٢- لا يستقيم أن يكون الكلام مُيسَّرًا للتعاهُد إلا إذا اجتمع له من داخله أمران: يسرٌ ذاتيٌّ في مبناه ومعناه، وانتفاء السآمة عن قارئه، ومن خارجه أمران: أن يكون محلٌّ قابلٌ لتلقِّيه بمنهجٍ صالحٍ لأخذه وتعاهُدِه، وأن يوجد دافعٌ ذاتيٌّ يضمن مداومة آخذه على تعاهُده.

٣- للقرآن الكريم موقعٌ فريد من العبادات، فتلاوته في ذاتها عبادة، وعبادة التدبُّر متوقِّفةٌ إلى حدٍّ كبيرٍ على جودة استظهاره، والرسوخ في العلم الشرعيِّ إنما يكون بقدر أخذه روايةً ودرايةً ورعايةً، والصلاةُ لا تصحُّ إلا بالقراءةِ، وتعليم القرآن المنوط به الخيريَّة؛ لا يتأتَّى – على وجهه الأتمّ – إلا لعالمٍ بالقرآن. هذه المنظومة المتكاملةُ تمثِّل الدافعَ الذاتيَّ إلى تعاهُد القرآن، ومتى ما كان الدَّافع ذاتيًّا فإنَّ المداومةَ مضمونةٌ بإذن الله.

٤- من لوازم تيسير القرآن للذِّكر تيسير تعاهُده، إذ إنَّ مجرَّد الاستظهار الذي يمحوه النسيانُ عن قريبٍ لا يُعدُّ منَّةً ولا منقبةً، وإنَّما الشأنُ في رسوخ المحفوظ في وعي القلبِ، وهو حاصلٌ بالتعاهُد، فلزِمَ أن يكون التعاهُد مُيسَّرًا.

٥- القرآن لا يخلق على كثرة الردّ، ولا يملُّ قارئه، لما له من

خصيصة نفي السآمة، وهي راجعةٌ إلى بلاغةِ القرآن ونظمه وأسلوبه الفريد من جهةٍ، وإلى إعجاز القرآن التأثيري من جهة أخرى. والإعجاز التأثيريّ للقرآنِ يُنبئ به كثيرٌ من الصفات التي وصف الله ﷻ بها القرآن؛ كالرُّوحانية والنورانية.

٦- إنَّ سنة الله ﷻ في حفظِ مَن يحفظُ حدود الله وأوامره ونواهيَه تفتح للحافظ المتعاهد مزيدًا من سُبُل التعاهُد، فهو كلَّما أضاف لرصيده من حفظ حدود الله؛ شكَرَ اللهُ له بمزيدٍ من الحفظِ الربَّانيِّ، الذي ينعكس عليه بمزيد من تيسير سبل العلم والفقه والبصيرة... وهكذا في تعاقُبٍ لا ينتهي، ولا ينصرم؛ ما دام العبد مُقيمًا على العهدِ مع الله ﷻ.

٧- ولم تتأتَّ هذه الأمور مجتمعةً إلا للقرآن الكريم، فإنَّ النَّقل والواقع شاهدانِ بانتفاء تيسير التعاهد وحفظه عن الكتب السماوية الأخرى، وانتفاؤه عن غيرها من كلام البشر أولى. وهو ما يشهد له الواقع أيضًا.

٨- فإذا صحَّ تفرُّد القرآن الكريم بهذه الخصيصة صحَّ أن يُعدَّ إعجازُ التعاهُد كوجهٍ من وجوه إعجاز القرآنِ، وأن يُعدَّ تيسيره كأحد أوجه تيسير القرآن المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾[القمر؛ أربع مرّات أولها: ١٧].

ثانيًا: أهم التوصيات:

١- يُوصي الباحث بتقريب مضمون هذا البحث لكلِّ مسلم، وخصوصًا للعاملين في مجال تحفيظ القرآن الكريم. ومن الفئات الأكثر ترشُّحًا لذلك: المشرفون على تخطيط برامج التعاهُد،

والمعلِّمون، والطلّاب الذين ختموا القرآن الكريم استظهارًا، وهم بصدد الاعتماد على أنفسهم في التعاهُد.

٢- يُوصي الباحث بإجراء بحوث تجريبية؛ للمقارنة بين يُسرِ استظهارِ القرآن الكريم وتعاهُده، ويسر استظهار غيره من الكلام وتعاهُده. ونتائج هذه البحوث الجادَّة يخاطب بها غير المسلمين. مع الأخذ في الاعتبار أنَّ دقة تلك البحوث تتوقَّف على استحداثِ معايير ومقاييس رقميَّةٍ لرصد درجة اليُسْرِ، واستحداث طرق ملائمة لقياسها، كما تتوقَّف على دقَّة تصميم التجارب؛ بما لا يُهملُ إبراز تأثير الدَّافع الذاتيِّ لتعاهُد القرآن الكريم، والمتمثِّل في مكانة القرآن الكريم في منظومة العبادات الإسلامية. ويتوقَّع الباحث أنَّ نتائج تلك البحوث تدعم فرضية إعجاز تعاهُد القرآن الكريم.

٣- من الموضوعات التي مسَّها هذا البحث مسًّا رقيقًا: "صفات القرآن الكريم ودلائلها"، وهو موضوع حقيقٌ بدراسةٍ مستفيضةٍ بمنهجٍ إحصائيٍّ استقرائيٍّ قائمٍ على التقصِّي على طريقة التفسير المَوضوعيِّ. ولم أقف – في حدود علمي واطِّلاعي – على تناوُلٍ لهذا الموضوع بتلك المنهجية. وهذه المعالجةُ جديرةٌ – بإذن الله – أن تكشف قدرًا غيرَ قليل من أسرار الإعجاز التأثيريِّ للقرآن الكريم.

المصادر والمراجع

١. أدب الكاتب، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّيَنَوَري (ت٢٧٦هـ)، عناية: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣؛ ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.

٢. إصلاح المنطق، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (ت ٢٤٤هـ)، تحقيق: أحمد شاكر – عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، بدون طبعة بدون تاريخ.

٣. إصلاح الوجوه والنظائر، الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، ط٣؛ ١٩٨٠م.

٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطيّ (ت١٣٩٣هـ)، طبعة دار عالم الفوائد، بإشراف الشيخ بكر عبد الله أبي زيد، ط١، ١٤٢٦هـ.

٥. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي (ت ١٣٥٦هـ)، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ط٨، ١٩٩٥م.

٦. إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، عناية: صلاح محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١؛ ١٤١٧هـ=١٩٩٦م.

٧. إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (ت ٣٨٨هـ)، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد – د.محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٣.

٨. البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

٩. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: د.يوسف المرعشلي وآخرَيْن، دار المعرفة، بيروت، ط١؛ ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.
١٠. بصائر ذوي التمييز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار- عبد العليم الطحاوي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٣؛ ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.
١١. بيان المعاني، عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (ت١٣٩٨هـ)، مطبعة الترقي، دمشق، ط١؛١٣٨٢هـ = ١٩٦٥م.
١٢. التبيان في آداب حملة القرآن، أبو زكريا يحيى بن شرف الدين النوويّ (ت٦٧٦هـ)، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد – دار البيان، ط١، ١٤١٢هـ = ١٩٩١م.
١٣. التبيان في أيمان القرآن، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيِّم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: عبد الله بن سالم البطاطي، دار عالم الفوائد، مكة الـمُكرَّمة، ط١؛ ١٤٢٩هـ.
١٤. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
١٥. التذكار في أفضل الأذكار، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت٦٧١هـ)، بعناية: بشر محمد عيون، دار البيان، دمشق، ط١، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
١٦. ترتيب المدارك وتقريب المسالك، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ)، مجموعة محقِّقين، مطبعة فضالة، المغرب، ط١.
١٧. التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه، يحيى بن

سلام التيمي القيرواني (ت ٢٠٠هـ) ، تحقيق: د.هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٩م.

١٨. تفسير ابن كثير = تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، ط٢؛ ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

١٩. تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١؛ ١٤١٨ هـ.

٢٠. تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود- الشيخ علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

٢١. تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

٢٢. تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط١؛ ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

٢٣. تفسير القرآن الكريم: جزء عمَّ، محمد بن صالح العثيمين، دار أضواء السلف بالقاهرة، ١٤٢٨هـ=٢٠٠٧م.

٢٤. تفسير مقاتل بن سليمان البلخي (ت١٥٠هـ)، تحقيق: د.عبد الله محمود شحاته، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت. ط١، ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٢م.

٢٥. تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٣٨٤: ١٣٨٧هـ=١٩٦٤ : ١٩٦٧م.
٢٦. جامع العلوم والحكم، أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين؛ ابن رجب الحنبلي (ت٧٩٥)، تحقيق: د.ماهر ياسين الفحل، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.
٢٧. جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، مؤسسة الزيات- دار ابن حزم، بيروت، ط١؛ ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.
٢٨. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.
٢٩. دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، دار المعرفة، بيروت، ط٣؛ ١٩٧١م.
٣٠. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.
٣١. زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
٣٢. الزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي (ت٩٧٤هـ)، دار الفكر،ط١؛ ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
٣٣. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر

الدين الألباني (ت١٤٢٠هـ)، المكتب الإسلامي ببيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ.

٣٤. سنن الدارميّ، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي (ت٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني، الرياض، ط١؛ ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.

٣٥. السنن، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ)، عناية: مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، ط٣.

٣٦. السنن، محمد بن عيسى الترمذي (ت٢٧٩هـ)، عناية: مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، ط١.

٣٧. سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت٧٤٨هـ)، مجموعة من المحققين ، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

٣٨. شرح صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣.

٣٩. الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصُبيّ (ت ٥٤٤هـ)، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

٤٠. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٩٠م.

٤١. صحيح البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، دار ابن كثير؛ دمشق – بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

٤٢. صحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هــ)، طبعة محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة ط١، ١٤١٢=١٩٩١.

٤٣. صفة الصفوة، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هــ)، عناية: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢١هــ = ٢٠٠٠م.

٤٤. الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هــ)، تحقيق: علي بن محمد الدخيل، دار العاصمة، الرياض، ط١؛ ١٤٠٨هــ.

٤٥. طبقات الحنابلة، أبو الحسين محمد بن محمد ابن أبي يعلى(ت٥٢٦هــ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

٤٦. العمر والشيب، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد المعروف بابن أبي الدنيا (ت٢٨١هــ)، د. نجم عبد الله خلف، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤١٢هــ.

٤٧. عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢؛ ١٤١٥هــ.

٤٨. غريب الحديث، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (ت ٣٨٨هــ)، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي- عبد القيوم عبد رب النبي، دار الفكر، ١٤٠٢هــ = ١٩٨٢م.

٤٩. غريب الحديث، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم (ت٢٢٤هــ)، تحقيق:د. محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن، ط١؛١٣٨٤هــ =١٩٦٤م.

٥٠. الفائق في غريب الحديث والأثر، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ط٢.
٥١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، بترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار التقوى للتراث بالقاهرة، ٢٠٠٠م.
٥٢. فتح الوصيد في شرح القصيد، علي بن محمد السخاوي (ت٦٤٣هـ)، عناية: جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة، طنطا، ط١؛ ١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م.
٥٣. فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، أبو عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ)، تحقيق: أحمد بن عبد الواحد الخيّاطي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.
٥٤. القطع والائتناف، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحَّاس (ت٣٣٨هـ)، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.
٥٥. قوت المغتذي على جامع الترمذي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: ناصر بن محمد الغريبي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى،١٤٢٤هـ.
٥٦. الكاشف عن حقائق السنن، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت٧٤٣هـ)، د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة، ط١؛ ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.
٥٧. كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق: د.مهدي المخزومي - د.إبراهيم السامرائي، دار الرشيد، بغداد،

١٩٨١م.

٥٨. اللباب في علوم الكتاب، سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي (ت٧٧٥هـ)، تحقيق: عادل عبد الموجود - علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.

٥٩. لسان العرب، أبو الفضل ابن منظور ، عناية وترتيب مجموعة من المحققين، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣=٢٠٠٣م.

٦٠. مائة وسيلة بسيطة لمنع الألزهايمر والخرف، جين كاربر ، ترجمة: غسّان غصن، نشر هاشيت أنطوان، بيروت، ٢٠١٢م.

٦١. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ=١٩٩٥م.

٦٢. المجموع شرح المهذّب، أبو زكريا يحيى بن شرف الدين النووي (ت٦٧٦هـ)، تحقيق وتكملة: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، المملكة السعودية.

٦٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

٦٤. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوريّ، دار الحرمين، ط١، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

٦٥. المسند، الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م.

٦٦. مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب العمري، التبريزي (المتوفى

ت٧٤١هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣؛ ١٩٨٥م.

٦٧. المصنَّف، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم ابن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق: حمد بن عبد الله الجمعة – محمد بن إبراهيم اللحيدان، مكتبة الرشد ، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

٦٨. معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٩هـ.

٦٩. معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، بدون طبعة، بدون تاريخ.

٧٠. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الشروق الدولية، ط٤؛ ١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م.

٧١. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ= ١٩٧٩م.

٧٢. معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف وشعيب الأرناؤوط وصالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢؛ ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م.

٧٣. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن حسن بن عبد الحميد الحلبي، دار ابن عفّان، المملكة السعودية، ط١، ١٤١٦هـ

= ١٩٩٦م.

٧٤. المفردات في غريب القرآن؛ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، مكتبة نزار الباز.

٧٥. الميسر في شرح مصابيح السنة، أبو عبد الله فضل الله الحسن التوربيتشي (ت٦٦١هـ)، تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط٢؛ ١٤٢٩هـ= ٢٠٠٨م.

٧٦. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

٧٧. النشر في القراءات العشر، أبو الخير محمد بن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠٠٦.

٧٨. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى- محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.